عبد الله القصيمي

يكذّبون كي يروا الإلّه جميلاً

دار الكاتب العربي

يكذبون
كي يروا الإله جميلاً

عبد الله القصيمي

يكذبون
كي يروا الإله جميلاً

لولا أفراد عباقرة قليلون يجيئون كولادة الشيء من غير أبويه أو كولادة الشيء بلا أبوين أو كولادة الشيء نقيضاً لأبويه ليهبوا الحياة جميع قفزاتها الجديدة المتابعة لما كان الإنسان فقط أردأ الكائنات حظاً بل ولكان أكثر الكائنات بلادة وتعاسة وهوانا . .

دار الكاتب العربي

دار الكاتب العربي

الطبعة الأولى ١٩٧٢م
الطبعة الثانية ٢٠٠١م

إذا انتصَــر النبــي
هُزمَت نبوّته

« . . . إن انتصار النبـي هزيمة لنبوته. إن نبوته حينئذ لا بد أن تتحول مـن نبوة مسالمة إلى نبوة محاربة، ومن نبوة واعظة ومتسامحة وغافرة إلى نبوة باطشة لاعنة معاقبة. إن النبـي إذا انتصر فلا بد أن ينتقل من نبـي حزين باكٍ مصل من أجل الخطايا والآلام والصغائر والتفاهات التي يعيشها جميع الناس وجميع الأشياء إلى نبـي زعيم أو إلى نبـي حاكم باطش غاضب فظ معير بالخطايا والأخطاء والآلام والصغائر بل وبالجوع والعجز. إن المهزوم المهان المولود في الهزيمة والهوان لا بد أن يصبح أقسى الجبارين إذا انتصر. . . إن الحيوان الضعيف المقهور الخائف لا بد أن يتحول إلى أقسى الوحوش وحشية لو أنه تحول إلى حيوان قوي غالب، لو أن أظفاراً وأنياباً قوية نبتت في جسمه. . . إن تغير الذات والوضع تغير في المذهب والتدين والأخلاق والفكر.

« . . . إنك إذا قلت الحقيقة وهي ليست في حساباتك أو ضد حساباتك فلا بد أنك تنوي شيئاً آخر. لعلك حينئذ تنوي نفيها وهزيمتها ومقاتلها بقولها وبالثناء عليها. إنك قد تجعل إعلانك عن الحقيقة التي لا تريدها سلاحاً أو سباً كيداً تطعن أو تخيف أو تهدد به إنساناً أو قوماً. إن الناس ليقاومون الحقيقة بـالحقيقة والصدق بالصدق بقدر ما يقاومون الحقيقة والصدق بالباطل والكذب. . ».

* * *

مواقفنا المذهبية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية والإنسانية والدينية ليست مواقف دينية ولا مذهبية ولا فكرية ولا أخلاقية ولا روحية ولا اجتماعية ولا إنسانية.

إنها مواقف قبلية وعائلية ومنزلية وجسدية. إنها مواقف قتال ومتاجرة ومخاصمة ومنافسة ومعاداة. إنها هي اللغة العالميّة التاريخية الأبدية التي يتكلمها كل إنسان وكل مجتمع ليعبر بها عن هموم أو آلام أو احتياجات أو طموح أو صفات أو مشاكل أو ظروف قبيلته أو أسرته أو جسده أو شهوته أو تاريخه أو مخاوفه. إن قبيلتك أو أسرتك لتكيف وتصوغ مذهبك وتقواك وإلهك ونبيك ومنطقك وتعاليمك.

إن تاريخ جسدك وما فيه من علامات سعيدة أو أليمة، قوية أو ضعيفة ليتدخل لصياغة مذهبك أو دينك أو تفكيرك أو أخلاقك، ولصياغة صفات وصور إلهك وأنبيائك، وصياغة شهواتهم وأهوائهم وتعاليمهم، ولصياغة تفاسيرك لهم.

إن أخلاق جدران وأبواب البيوت التي نسكن، وأخلاق شوارع وميادين الحي الذي نقيم فيه أو نمر به أو نواجه، وأخلاق وجوه وطعام وثياب وصحة وجمال أو دمامة أطفالنا أو أطفال جيراننا، وإن صور آبائنا وأجدادنا الحزينة الهزيلة الشاحبة البائسة الناظرة برعب ويأس، المعلقة بلا إتقان أو اهتمام فوق فرشنا المسكونة بالحشرات والهموم وبالأدران وبالتاريخ الحزين.

ـ نعم، إن كل ذلك ليصوغ مذاهبنا وأدياننا وأفكارنا وأربابنا وأنبياءنا وزعماءنا. إنه ليصوغ جميع نماذجنا الفكرية والسلوكية والدينية والروحية والنفسية والاجتماعية، بل إنه ليصوغ نماذج وأخلاق وتفاسير آلهتنا ومعلمينا، بل يصوغ نياتهم ولغاتهم ومثلهم وأحاسيسهم وقوتهم وضعفهم ومستوياتهم الجمالية والذاتية والنفسية والتاريخية والإبداعية.

إن صفات وجودنا هي التي تفسر هؤلاء وتهبهم قيمهم وعبقرياتهم، لا صفات وجودهم أو ذواتهم هم. .

إن الفقير المحروم والضعيف المقهور قد يجدان للفقر والحرمان والضعف والقهر مزايا دينية أو مذهبية أو إنسانية أو روحية. إنهما قد يجدان كل المزايا والمجد والخير والتقوى والنظافة والبراءة وحب الآلهة ورضاها في ذلك، أي في أن يكون المرء ضعيفاً مقهوراً وفقيراً محروماً.

إنهما قد يذهبان حينئذ يلعنان ويكرهان ويشتمان الأقوياء والسعداء والأذكياء والمتفوقين والمنتصرين، بل والمبدعين الخلاقين. إنهما قد يذهبان يتدينان ويمتدحان نفسيهما بالتحدث عن رذائل وفسوق الذكاء والقوة والتفوق والسعادة والانتصارات. ثم يذهبان يتصوران ويعلنان ويريان أن النماذج الإنسانية العظيمة والخالدة كانوا جميعاً ضعفاء وبؤساء ومغلوبين مقهورين محرومين.

نعم، إنهما هكذا سوف يعتقدان ويعلنان ويفخران ويفسران.

لقد كان جميع الأنبياء والقديسين والقادة الإنسانيين وجميع المؤمنين الأتقياء ـ لقد كانوا جميعاً من المحرومين أو المعذبين أو المشوهين أو المحزونين أو المظلومين أو المقهورين أو المعتدى عليهم أو الضعفاء، أو من الذين لا يملكون أي تفوق عقلي أو فني أو ذاتي. إن التفوق العقلي والذاتي قد ظل في كل التاريخ يحسب ذنباً أو زندقة. لقد ظل هذا التفوق يحسب كفراً بالأرباب وبالأنبياء وبالزعماء وبالمعلمين وبالمذاهب والأديان.

إننا جميعاً أنبياء وقديسون وإنسانيون وفدائيون ونماذج للتقوى والحب والتواضع والتسامح والحرية والإيمان، أي حينما نكون فوق الأرض مع الإنسان المقهور المعذب المهان المحروم المعتدى عليه.

إننا حينما نكون فوق الأرض لا بد أن نكون سماويين في تعاليمنا أو في دعاوانا أو في نياتنا أو في أمانينا أو في حبنا وتواضعنا وتحليقاتنا. . .

. . . أما حينما نقفز فوق الأرض وفوق سكانها، ونرتفع فوق جاذبيتها ونصبح سادة وقادة وسعداء وأقوياء وأنبياء يتخاطبون مع السماء وبلغة سكان السماء، فإن كل شيء فينا حينئذ لا بد أن يصاب بالتغير العظيم.

إن جميع الأشياء لا بد حينئذ أن تصاب في رؤانا وحساباتنا بالمرض الملائم. . .

إن لغاتنا ونياتنا وشهواتنا وتفاسيرنا وأفكارنا وتصوراتنا ونبواتنا، بل وعيوننا وخفقات قلوبنا، بل وصور الأشياء والناس في عيوننا، بل وقدرة عيوننا على الرؤية، بل وأخلاق ومواهب عيوننا وآذاننا ـ نعم، إن كل ذلك حينئذ لا بـد أن يصاب بالتغير الكبير. إن أخلاق ومرائي ولغات وأفكار وأديان ومذاهب جميع الأشياء حينئذ لا بد أن تتغير في حواسنا وأحاسيسنا وفي تقوانا.

إننا حينئذ لا بد أن نصبح في كل معانينا من أعنف السادة وأقسى الطغاة الجبارين. إننا حينئذ لا بد أن نكفر عن كينوناتنا وآلامنا وأوضاعنا القديمة. إننا لا بد أن نعاقبها ونكفر عنها. وإن أسلوب العقاب لها والتكفير عنها لن يكون إلا بالانتقال إلى النقيض، بأقسى وأفظع أساليب الانتقال، وأيضاً بأقسى وأفظع مستويات هذا النقيض.

إننا حينئذ لا بد أن ننحاز إلى مواكب الأرباب الجديدة العاتية الشابة البازغة بجبروت ودوي وتدليل باهظ على بزوغها وعلى إنحيازنا إلى هذه المواكب.

إننا حينئذ لا بد أن ننحاز إلى أخلاق وأفكار ومشاعر الصاعدين الجبارين الجائعين جداً إلى الصعود والجبروت. إننا لا بد أن ننحاز إلى ذلك بلا تدبير كما ينحاز المنطلق من جاذبية الأرض إلى جاذبية الكوكب أو الكون الذي يهبط إليه أو يصعد إليه. أليس محتوماً أن تتغير أخلاق وأفكار

واحتياجات ونيات وأحاسيس وحواس من يصعد إلى القمر ويسكن فيه لاختلاف كل شيء هناك؟

إن أقبح وأوقح أنواع الكبرياء والجبروت هما كبرياء وجبروت القادرين الذين ينهضون من التراب ليصبحوا تيجاناً باهظة فوق هامات جميع الهامات، ولينظروا بحقد وغضب وذعر وتهديد واحتقار إلى التراث الذي نهضوا منه، وليتحولوا إلى أقسى جلادين ومعاقبين للتراب الذي كان سماءهم والذي نهضوا منه. ما أقبح التراب في أحاسيس من خلقوا منه ثم ارتفعوا فوقه.

أليس أكثر الناس خوفاً من الشقاء والألم ورفضاً ومقاومة لهما هم الذين كانوا يقاسونهما ثم انفصلوا عنهما؟

ما أفظع أخلاق التراب حينما يتحول إلى تيجان، حينما يتحول أي التراب إلى قادة وأبطال وأنبياء. أيها التراب، إني لا أرهب شيئاً مثلما أرهبك حينما تتحول إلى قادة وأبطال وأنبياء لتتحدث بلغة السماء من فوق هامات النجوم.

إننا حينما نكون ضعفاء ومغلوبين ومعتدى علينا ومتألمين نؤمن بالاحتجاج والنقد والرفض وبالحرية الشاملة أو العادلة أو المطلقة. ونؤمن كذلك بالبكاء وبالشكاوى تألماً واشمئزازاً من الدمامات والتفاهات ومن كل ألوان المنكرات. وأيضاً نؤمن بالغضب الضاج على المظالم والأخطاء والآلام، وعلى المذاهب والزعماء والقادة والناس، وعلى الآلهة والكون أحياناً، تطلعاً إلى الأفضل أو إلى الأتقى أو الأذكى.

إننا حينئذ نؤمن بأن للإنسان كل الحرية في أن يبكي ويتألم ويغضب وفي أن يتحدث عن بكائه وغضبه وآلامه، ويشير إليها.

ولكن إذا تغير الموقف وأصبحنا نحن الأقوياء والمنتصرين والسادة القاهرين والصانعين للضعف والألم والهزيمة للآخرين، وصرنا نحن المشكو منهم والمطالبين والمنقودين والمالكين للحرية، لكل الحرية، تغيرت أخلاق

ومشاعر الأنبياء والقديسين والإنسانيين الساكنين في ذواتنا، وأصبحنا أشد شراسة ومقاومة لما كنا ندعو إليه ونؤمن به من جميع الطغاة المولودين طغاة من آباء طغاة. إننا حينئذ لا بد أن نجد في البكاء، في مجرد البكاء كل معاني الزندقة والعصيان والتمرد علينا. إن الحيوان الوديع المظلوم المهزوم المعتدى عليه الخائف الضعيف في كل تاريخ آبائه لو أنه تحول إلى ذئب وملك كل أدوات وقوة وموقف الذئاب لكان المنتظر أن يصبح أقسى ذئبية من جميع الذئاب الوارثة للذئبية من كل آبائها الموروث. إن الحيوان الضعيف المقهور لا بد أن يصبح أقسى الوحوش وحشية لو أنه تحول من موقف الأضعف إلى موقف الأقوى.

إن أي نبـي لا بد أن تهزم نبوته إذا انتصر. إن نبوته حينئذ لا بد أن تتحول من نبوة مسالمة إلى نبوة محاربة، ومن نبوة واعظة ومتسامحة وغافرة إلى نبوة باطشة ومعاقبة. إنه لا يوجد من يقاوم النبوة ويقسو عليها في مقاومته ومن يخاف منها مثل النبـي إذا انتصر. إنه لا أحد يقتل الأنبياء أو يقتل معاني الأنبياء مثلما يقتلهم ويقتلها النبـي إذا حكم. إن النبـي الحاكم هو أكبر قاتل لذاته. إن النبـي، أي نبـي، إذا انتصر فلا بد أن ينتقل من نبـي حزين وباك ومصل من أجل الخطايا والآلام والصغائر التي يعيشها الناس وتعيشها جميع الأشياء إلى زعيم أو إلى نبـي حاكم باطش سفاك معير بالخطايا والأخطاء وبالآلام والصغائر.

إن أخلاق ومشاعر ووداعة كل نبـي لا بد أن تموت إذا انتصر. إنها لا بد أن تتحول إلى النقيض، إلى النقيض العنيف جداً. إنه لا بد أن يكون حينئذ أقسى من كل القساة ليكفر ويعوض عن وداعته القديمة، أو لينساها ويتخطاها، أو ليحاسبها ويعاقبها، أو ليطالبها بتشديد الحساب القديم.

إن المهزوم المهان لا بد أن يصبح أقسى الجبارين جبروتاً إذا انتصر.

* * *

ماذا تقول التجربة الطويلة؟ ما أقسى ما تقول التجربة. ما أقسى تفاسير الأشياء. إن من الرفق بنفسك ألا تفسر الأشياء وألا تستمع إلى من يفسرونها، إلا إذا كانوا مزورين.

ماذا فعل وأصبح جميع الضعفاء المقهورين المهانين انطلقوا من مغارات الخمول والهوان ليصبحوا دوياً وقمماً؟ ـ ليصبحوا نشيداً عالمياً في أفواه الآلام والأحزان، ليصبحوا صواغ آلام وأحزان وهوان؟

لقد جاءوا أناشيد ملائكية، وابتهالاً وأحزاناً نبوية، وبعد أن سطعوا وصعدوا وانتصروا أصبحوا ماذا؟

نعم، ماذا أصبحوا بعد أن كانوا؟ كيف أصبحوا بعد أن هربوا من خمولهم وهوانهم وحضيضهم؟

لقد جاءوا أحزاناً ودموعاً في عيونهم وقلوبهم، ثم تحولوا إلى أحزان ودموع في عيون وقلوب من جاءوا لهم ومن أجلهم.

لقد تحولوا إلى أحزان ودموع في عيون وقلوب الزهور والحقول، في أعصاب الظلام والنور...

لقد تنكروا بأقوى مشاعر الجرأة لأحزانهم ودموعهم وابتهالاتهم. لقد خرجوا على جميع إدعاءاتهم الإنسانية المتواضعة التي انتصروا بها أو التي انتصروا وهم يهتفون باسمها. لقد غدروا بدموعهم وأحزانهم وتضرعاتهم.

وهل في البشر من لم يغدروا بدموعهم وأحزانهم؟ هل فيهم من لم يتحولوا إلى تكذيب لدموعهم وأحزانهم وصلواتهم؟

لقد راحوا يعاقبون ويقاومون الضعفاء والمغلوبين والمتألمين والباحثين عن الصدق والعدل والنور والحرية والتقوى وعن الالتزام بالمذهب أو الدين الذي كان هو نبوة مجيئهم أو حجة مجيئهم. لقد راحوا يعاقبون ويقاومون

هؤلاء أكثر وأعنف مما يفعله أشرس وأقسى الحكام والملوك الذي يجيئون إلى هذا العالم في مواكب من التاريخ، يحرسها ويهتف لها كل ما في الدنيا من منابر ومحاريب وقيم ومذاهب وأديان وكتب مقدسة، ومن مباهج وقوة وضعف وخوف وحب، ومن طغيان وأكاذيب وآلهة وأقلام وقرطاس.

ما أفتك الأظفار والأنياب التي لا تلدها أظفار وأنياب بل التي تلدها الدموع والأحزان والصلوات المقهورة؟

إن المجد المستحدث أو المكسوب بالاغتصاب أو بالانقضاض لا بد أن يصبح هو أشد وحوش المجد فتكاً ووحشية وبذاءة وخوفاً وجنوناً وعدواناً. إنه لا بد أن يجيء بلا أي مستوى من الأخلاق أو التقاليد أو الوقار أو التهذيب أو الحب. إنه لا بد أن يكون أظفاراً وأنياباً فقط. إن جميع الفضائل حينئذ هي فضائل الأظفار والأنياب. إنه لن يمارس من الأخلاق أو المزايا سوى مزايا وأخلاق الأظفار والأنياب التي لا تقاليد ولا مجد ولا تاريخ لها. وهل توجد وحشية مثل وحشية الأظفار والأنياب التي لا تقاليد ولا تاريخ ولا مجد ولا آباء لها؟

إن من انتصروا بالأظفار والأنياب لن يحترموا سواها، أو يتعاملوا أو يؤمنوا بسواها، أو يعترفوا لسواها. إنهم يتحوّلون إلى قديسين في وفائهم لأظفارهم وأنيابهم. إنه لا مثيل لوفاء أصحاب الأظفار والأنياب في تعاملهم مع أنيابهم وأظفارهم.

إن أكثر الناس إذلالاً واحتقاراً للطبقات المغلوبة هم أبناؤها إذا ارتفعوا فوقها وانفصلوا بانتصارهم وقوتهم عنها.

إنه لا أحد يقسو على الطبقة المقهورة مثل أبنائها إذا خرجوا منها بأن أصبحوا قادرين.

إنهم حينئذ لا بد أن يبالغوا في الفتك بالطبقة التي ولدوا فيها وهربوا

منها. إنهم بذلك كأنما يحاولون أن يعاقبوا ويرهبوا ماضيهم الذي قد كان لئلا يفكر في العودة، ولئلا يفكر فيهم أو ينظر إليهم، أو يتحدث عنهم، أو يتذكرهم أو يكتب إليهم أية رسالة تشرح ما كان، أو تشير إليه، أو تذكر به.

إنهم بفتكهم بالطبقة التي خرجوا منها كأنما يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بأنهم قد انتصروا وتفوقوا عليها، وبأنهم قد أصبحوا كائنات أخرى لا علاقة لها بما كان، بل لا شيء قد كان غير ما هو كائن الآن. إنهم إذن لن يعودوا إليها ولن تعود إليهم. إنهم يرفضون ويقاتلون العودة حتى ولو بالذكرى أو الحديث.

وكأنهم أيضاً يريدون بفتكهم هذا ألا تبقى بينهم وبين طبقتهم السابقة أية علاقة طيبة بل أية علاقة من أي نوع سوى علاقة الافتراس والفتك، سوى علاقة القوة بالضعف، أو سوى علاقة الغضب والرفض والعداء والتهديد والتخويف والقهر.

إنهم هاربون من تاريخهم، .وإنهم يريدون توكيد هربهم هذا بالقسوة والتوحش والمعاداة. إنهم لمحتاجون إلى التدليل على أنهم قد أصبحوا أقوياء وقساة ليؤكدوا فراقهم الأبدي لما كان. إنه لا بد من نسيان ما كان. وإن وسيلة النسيان هي الوحشية البذيئة. إذن لا بد من الفتك والقسوة والجنون.

إنهم محتاجون إلى أن يدللوا على أنهم لم يكونوا إلا ما هم كائنون الآن.

إن رذائل الحكام الوارثين للحكم لم تولد معهم، وإنما تعودوها واكتسبوها من ظروفهم ومواجهاتهم ومعاناتهم. وإن أقدر الظروف على خلق الرذائل وتعليمها هي ظروف من صعدوا من الحضيض إلى القمة، ومن الصمت والخمول إلى الدوي والانتشار والبريق الخاطف للعيون بقفزة من القفزات المنقضة.

إنه لأكثر الأماني والظنون استحالة أن ينتصر من ارتفع من أعماق الحضيض إلى أعالي القمم بإحدى الضربات ـ أن ينتصر على الظروف التي لا بد أن تصنع منه وحشًا ووغدًا ونذلاً وآثماً فاجراً كبيراً.

إنه لتوقع للمستحيل أن نتوقع من أي إنسان قد أصبح فجأة قيصراً وبضربة منقضة أن يجيء إنساناً غير قاتل أو غير وحش أو غير عدواني النفس والتفكير والتدبير والسلوك، لأنه في يوم من الأيام القريبة والبعيدة قد تخلق من مشاعر التراب ومن تواضع الأرض وعذابها، ولأنه كان قد نادى بالحب والرحمة والحرية والتسامح والتواضح وبالإنسانية المحرمة لحمل السلاح ضد أي إنسان حينما كان إنساناً مهزوماً. ولأنه كان يوماً ما نبياً تنزل عليه الآيات والتعاليم من السماء ويصلي ويبكي في المحاريب رثاءً وحزناً وحباً للإنسان. . .

إن مثل هذا الحاكم القصير لا بد أن يصبح بعد تذوقه للشهوات الجديدة المحرمة، وبعد صعود قدميه بعيداً، بعيداً فوق التراب والأرض، وفي السموات المثيرة المملوءة بالإملاءات والإغراءات وبالانفعالات الخائفة والراضية الحزينة والبهيجة، الآمرة والناهية.

ـ نعم، إن مثل هذا الحاكم القيصر لا بد أن يتفوق في وحشيته على جميع الوحوش التاريخية، على جميع الوحوش بالميلاد أو حتى بالموهبة.

إن أكثر الأنياب والأسلحة والهموم والأمجاد والانتصارات فتكاً وعدوانية هي أحدث الأنياب والأسلحة والهموم والأمجاد والانتصارات، وأكثرها خوفاً وتوتراً، وأحدثها انطلاقاً من الضعف والهوان والحضيض، وأقواها علاقة وتاريخاً بالضعف والهوان والحضيض.

إن مثل هذا الإنسان الذي أصبح فجأة وبضربة منقضة قيصراً لا بد أن يكون حاداً بلا قياس أو نموذج في خشيته التفلت والارتداد إلى الوراء والتذكر له.

إن الصاعد من أعماق المنخفضات إلى أعالي القمم لا بد أن يكره ويخاف ويقاوم الهبوط والمنخفات ومسبباتها والتذكير بها بوحشية وجنون لا يفعل بمثلهما من ولدوا فوق القمة.

لقد قاست البشرية في كل تاريخها من الآلهة والطغاة والمحدثين اضعاف ما قاست من الطغاة والآلهة بمولدهم. إن الإله بالمولد قد يكون بلا إظفار ولا أنياب، أما الإله بالانقضاض فلا بد أن يكون متفوق الأظفار والأنياب.

إني لأخاف الإله الذي ولده إنسان ضعيف مهان متواضع إضعاف خوفي من إله قد ولده أقوى وأقدم إله. إن الآلهة أبناء الآلهة لن يكونوا في وحشيتهم مثل الآلهة أبناء البشر أو أبناء الإنسان.

إن الآلهة بالمولد قد تكون هي أجهل الآلهة بأخلاق الأرباب، وأعجزها عن ممارسة هذه الأخلاق. إن أفضل الأرباب هي أجهلها بأخلاق الأرباب وأعجزها عنها.

إنه إذا كانت الآلهة هي دائماً طاغية ومعادية للإنسان فإن أكثرها طغياناً ومعاداة للإنسان هي الآلهة التي ولدت في الأرض، وليست التي ولدت في السماء. إن الولادة في السماء تعلم التواضع والتسامح والرفق والإحساس بالأمان أكثر مما تعلم ذلك الولادة في الأرض. إن الأرض لتصنع الآلهة المتوحشة الحاقدة أكثر مما تصنعهم السماء.

إن الذين يولدون في السماء لا يمكن أن يعيشوا أو يعرفوا أو يجربوا أحقاد ومخاوف وهموم وبغضاء وبذاءات وأنياب ومجاعات وسفاهات من يولدون فوق الأرض أو تحت الأرض.

إن كل نذالات البشر لا تعني إلا أنهم يخافون ويتألمون ويريدون ويجوعون.

إن أقسى القساة أو الطغاة أو الوحوش هم الذين اخترعوا وتصوروا بخيالهم وتعاليمهم الجحيم وأهواله. إن هؤلاء هم الذين تحدثوا عن مثل هذا الجحيم وعن أهواله، وتوعدوا به وصدقوا إنه أي الجحيم موجود بكل أهواله الموصوفة، وتقبلوا أن يكون موجودًا، وأن يكون جزاء ومكاناً للبشر.

إن أقسى القساة أو الطغاة أو الوحوش هم الذين تقبلت ضمائرهم وأخلاقهم وعقولهم وتعاليمهم كل ذلك، وتصورته وتحدثت عنه وعلمته، ثم استطاعوا أن يظلوا أحياء، أو أن يمارسوا أي لون من ألوان الحياة أو يسعدوا به.

كيف استطاعوا أن يظلوا أحياء أو أن يسعدوا بأي شيء وهم يتصورون أن إنساناً واحداً، أن إنساناً واحداً فقط قد يعاقب بجحيمهم هذا؟

كيف أمكن أن يعيش في خيالهم مثل هذا الجحيم؟ كيف يستطيعون الابتسام؟

إن تصورنا للعقاب وتشريعنا له لن يكونا إلا تعبيراً ما عن مستوياتنا النفسية والعقلية والأخلاقية والتاريخية. إن متصور الجحيم ومشرعه للبشر لا يمكن الهبوط إلى حضيض مستوياته النفسية والعقلية والأخلاقية.

إذن فإن أقسى القساة هم الأنبياء الذين استطاعوا أن يخترعوا بخيالهم هذا الجحيم، والذين تصوروه وشرعوه عقاباً للإنسان، والذين استطاعت عقولهم وأخلاقهم وضمائرهم تقبله جزاء وعدلاً وخلقاً ومنطقاً للإله. والذين جرؤوا على التحدث عنه والإنذار به، والذين جرؤوا على أن يحولوا التحدث عنه والتوعد به إلى تعاليم خالدة تتلى من فوق جميع المنابر ويصلى بها في جميع المحاريب. فتاة صغيرة رقيقة تقتلها هبات النسائم، وشيخة كبيرة فانية تقتلها قبضة اليد المشيرة إليها من بعيد بالتهديد ـ هاتان الفتاة والشيخة سوف تخلدان في جحيمك لأنهما ولدتا في مكان غير مكانك فلم تؤمنا بتعاليمك. أنت إذن نبي رحيم كريم بعثت رحمة للعالمين. . .

اعتذاراً إلى رحمتك وحنانك أيتها الوحوش الطيبة. اغفري للبشر وحشيتهم أيتها الوحوش... اغفري لأنبيائهم وحشيتهم التي لا تتصورين مثلها.

... إنهم يعتذرون من وحشيتهم إليك. إن أنبياءهم الكبار جداً يرون أن الجحيم الذي تصوروه وتحدثوا عنه جزاء عادل ورحيم ومعقول للإنسان الذي لم يستطع أن يكون أكبر أو أعظم أو أنظف أو أذكى أو أقوى مما أراده وخلقه الإله، أو الذي لم يستطع أن يكون أقوى أو أتقى أو أذكى من الإله، أو الذي أطاع ونفذ في نفسه وفي سلوكه ونياته إرادة الإله ونياته وشهواته وتقديره.

إن البشر يعتذرون إلى رحمتك وحنانك أيتها الوحوش من قسوة أنبيائهم الرحماء جداً. إنهم يعتذرون إليك. إن قسوة أنبيائهم ستصدم حنانك.

إن أنبياءهم يعتقدون أن الخلود في الجحيم الموصوف جزاء عادل بل ورحيم للإنسان الذي لم يستطع أن يكون غير ما إراد الله له.

لقد جاء الأنبياء قساة هكذا ـ لقد جاءوا قساة على مستوى قسوة الجحيم لأنهم قد ولدوا وخلقوا وخرجوا من آلام وأحزان الأرض وعاشوا في جحيمها. لقد عاشوا الأهوال فحولوها إلى تعاليم وإلى عطايا ومواهب آلهة لا مثيل لها في العدل والحب والرحمة. هل كان يمكن أن يوجد الجحيم في تصورات وتعاليم الأنبياء لو أنهم لم يكونوا يقاسون من الهوان والظلم والهزائم وأساليب العذاب الأخرى؟

إذن هل يصنع القسوة والبغضاء أو يتصورهما مثل الذين ينبتون في الشقاء والضعف والهوان؟ هل يوقع العذاب بالآخرين مثل الذين قاسوا من العذاب أو مثل الذين خرجوا من أصلاب العذاب؟

* * *

أيتها الأرض. إني أرتجف من طغاتك الذين يتفجرون عليّ وتحت أقدامي من قاعك أكثر مما أرتجف من الطغاة الذين يهبطون عليّ من فوق هامات النجوم.

يا طغاة السماء. إني لا أخافكم مجتمعين مثلما أخاف طاغية واحداً من طغاة الأرض.

يا طغاة الأرض، يا أقسى الطغاة. يا من حول طغيانكم كل طغيان إلى محبة وصداقة وتواضع ورحمة وصلاة. يا من تحول طغيانهم إلى اعتذار عن كل طغيان، وإلى ثناء على كل طغيان. يا من أنسى وغفر طغيانهم كل طغيان.

يا طغاة الأرض، يا شر الطغاة.

أيها الأنبياء.

يا أنبياء المحبة والرحمة والتعاليم ضد الطغيان والوحشية والبغضاء.

أيها الأصدقاء، أيها الرحماء. أنتم أكثر وأشد الأعداء حقداً وبغضاً. أنتم أقسى الطغاة إذلالاً وتحقيراً وإرهاباً وتحطيماً للمغلوبين والضعفاء.

إذا انتصرتم... أنتم قتلة كل محبة ورحمة وتسامح إذا انتصرتم.

إذن فلا تنتصروا أيها الأنبياء. إنا نضرع إليكم ألا تنتصروا...

يا أنبياء المحبة والرحمة والإنسانية والتعاليم النبيلة...

لا تنتصروا، لا تنتصروا... إنا نتضرع إليكم ألا تنتصروا.

لا تنتصروا، لا تنتصروا... إنا نتضرع إلكيم ألا تنتصروا.

لا تنتصروا يا من تصوروا الجحيم للإنسان وأرادوه له لأنهم يحبونه، يا من طالبوا الإله بأن يعد الجحيم للإنسان.

* * *

التقوى والنظافة في لسان الواعظ وظيفة واستعطاء، وفي لسان الضعيف عزاء وأنين، وفي لسان الفاجر ذكرى وهجاء، وفي لسان التقي أمنية واعتذار. أما في لسان النبي فموهبة وعظية ولغوية وتاريخية، وأما في لسان الطاغة فسخرية وتهديد، وأما في لسان الشيطان فتذكير للإله وللإنسان بهزيمتهما وضياعهما، وبمن هو أقوى وأذكى وأكبر مجداً وأنظف أغراضاً ونيات منهما. أي تذكير لهما بنفسه.

إن التقوى والنظافة هما دائماً بلا وعاء، أي بلا تطبيق، أي بلا إنسان. إن جميع الناس مهما تفاوتوا أساليبهم يفعلون التقوى والنظافة على مستوى ما وبتعبير ما، ولكن كما يفعلون الفجور والتلوث، أي يفعلونهما بلا أخلاق أو تدين، أي كما يشترون الطعام ويجدون لذة أو راحة في ابتلاعه ومضغه، وكما يتجنبون مهالك الطريق ويشتهون النساء، وكما يصابون بالخفقان حين رؤيتهن وبلا رؤية لهن. وكما يتفاوتون في ممارساتهم لهذه كذلك يختلفون ويتفاوتون في ممارساتهم لما يزعمونه تقوى ونظافة.

إن فاعل التقوى والنظافة ليس متديناً ولا فاضلاً إلا بقدر ما تكون الإصابة بالخفقان، أو اجتناب مهالك الطريق، أو الارتجاف لرؤية المرأة تديناً أو تطهراً أو استقامة أو مزيداً من الالتزام بالمذهب أو بالأخلاق.

* * *

إننا جميعاً ننكر على الآخرين أخطاءهم أو كثيراً من مواقفهم وشهواتهم، ولكننا إذا كنا في مثل ظروفهم فعلنا جميع الأشياء التي ننكرها عليهم بنفس الشهوات والنيات والتفاسير والمنطق، بل وبنفس الإعلان والجرأة والافتضاح. إننا تحت الظروف التي يكشفون تحتها أعضاءهم المحرمة لا بد أن نفعل نفس فعلهم بنفس الحماس والوقاحة والتدين. وتحت نفس الظروف التي نذهب تحتها نهتف للطغاة ونصلي للآلهة ونمجدها لأنها خلقت لنا الصراصير والفئران يذهبون هم يفعلون نفسه الشيء بنفس الحماس والمنطق.

ولكن الظروف ليست جميعاً خارجية. إنها أيضاً ذاتية ونفسية وفكرية وثقافية وتعليمية وتاريخية بل وجسدية. إنه إذا تساوت جميع هذه الظروف بين إنسان وإنسان أصبح الاختلاف بينهما في الموقف أو في المنطق أو في التفسير أو حتى في الرؤية للإشياء مستحيلاً، إن الاختلاف بينهما حينئذ يصبح كالاختلاف في الوزن بين كتلتين من المادة تساوتا في النوع والجحيم وفي قوة الجاذبية التي تخضعان له. إن الاختلاف بينك وبين أي إنسان آخر في رؤية كل منكما لجمال آلهة أو لصدق مذهبه أو لصدق دينه يساوي الاختلاف بينكما في هذه الظروف...

إن الاختلاف بينك وبين أي إنسان آخر ليس له إلا سبب واحد هو اختلافكما في الظروف الذاتية والخارجية. إنه ليس له أي سبب أو تفسير من أسباب أو تفاسير التقوى أو النظافة أو السمو الإنساني.

إنه ليس إنسان أتقى أو أسمى من إنسان إلا بقدر ما حجر أو نبتة أو أتقى أو أسمى من حجر أو من نبتة أخرى.

إنك لو فعلت الصواب تحت الظروف، أي الذاتية والخارجية التي يفعل تحتها غيرك الخطأ لكنت إنساناً غير معقول بل إنساناً مخطئاً ومذنباً، بل لما كنت إنساناً، بل لكنت إنساناً لم يوجد ولا يمكن أن يوجد. إن الخطأ تحت ظروفه هو الصواب والواجب. وإن الصواب تحت ظروف الخطأ هو الخطأ. إنه لن يوجد من يؤمن تحت الظروف التي يكفر تحتها الآخرون. ولو وجد من يؤمن تحت مثل هذه الظروف لكان مخطئاً ومذنباً وغير مفهوم.

إنه لا يمكن تغيير الناس من خبثاء إلى فضلاء وأتقياء ولا العكس، وإنما يمكن تغيير ظروفهم أي الخارجية والذاتية، وتغيير تعبيراتهم وأساليبهم، أي تغيير أزيائهم ولغاتهم وأساليب وصيغ وأدوات مواصلاتهم وممارساتهم ومعاملاتهم. إن الفرق بين النبي وداعية المذهب وبين

نقيضيهما يساوي الفرق بين معنى واحد يعبر عنه بلغتين أو جسد واحد يظهر في زيين مختلفين.

إن الفرق بين النبـي وقاتله هو فرق مستويات أو ظروف ذاتية أو نفسية أو اجتماعية أو تاريخية أو عقلية، لا فرق أخلاق أو تقوى أو طهارة، ولا فرق محبة أو بغضاء للظلام. إن عيني النبـي ليستا أكثر صداقة للنور والجمال ولا أقدر على رؤية الإله أو رؤية جماله أو جمال مخلوقاته من عيوب قاتلي النبـي. إن النبـي لم ير أكثر أو أفضل من قاتليه ولكنه أحس وأراد وقال مخالفاً لقاتليه لاختلاف الظروف.

إن الفرق بين النبـي وقاتليه ليس فرقاً بين من يخاف على عيون الأطفال أن تصاب بالظلام أو برؤية العذاب والأهوال، وبين من يتمنون لها ذلك. إنه ليس فرقاً بين من يخافون على العيون الجميلة والبريئة من أن تحترق في الجحيم أو تتشوه بالمرض والموت وبين من يريدون لهذه العيون كل ذلك . . .

إن النبـي لم يخص بعيون خارقة أو غير معقولة لتستطيع أن ترى في الدمامات والعاهات والآلام والمظالم من جمال الإله ورحمته وعدله وحبه وذكائه، ومن الخير والنفع للمصابين بذلك أكثر أو أعمق مما تستطيع أن ترى عيون قاتليه.

. . . إنه أي النبـي لم يفهم أن الإله محتاج لكي يكون حكيماً ومنطقياً وعبقرياً إلى أن يخلق الدمامات والعاهات والمظالم والآلام أكثر أو أصدق مما فهم ذلك قاتلوه. إنه لم يوهب عبقرية هذا الفهم لمنطق الإله حينما أراد أن يمجد ألوهيته وأخلاقه بخلقه لهذه الآفات الرهيبة.

إن النبـي لا يملك تحديقات أقدر على رؤية الإله البعيد الخفي جداً أكثر مما يملك مثل هذه التحديقات قاتلوه. إنه ليس عليماً باللغات أكثر من

أعدائه وقاتليه لكي يستطيع أن يعرف لغة الإله المتحدثة بواسطة الأشياء والأحداث أكثر مما يستطيع أن يعرفها قاتلوه وأعداؤه. إنه لم يتعلم هذه اللغة في معهد لم يتعلم فيه أعداؤه ورافضوه.

إن قلب النبـي ليس أشد أو أعمق عطفاً من قلوب خصومه ومخالفيه على أحزان الإله وعلى شهواته وعلى جوعه غير المعقول وغير الوقور إلى أن يكون معبداً وممدوحاً ومهتوفاً باسمه، ومنشداً القصائد والصلوات والضراعات، وإلى أن يكون مخوفاً مخيفاً، معلناً الاعتراف به.

إنه أي النبـي ليس أكثر من خصومه والخارجين عليه حماية لعيني الإله من أن تريا ما قد يعذب ضميره أي ضمير الإله، أو يهين مشاعر الكبرياء والكرامة فيه. إنه لا يوجد توافق بين شهوات النبـي وشهوات الإله أكثر من التوافق بين شهوات الإله وشهوات أعدائه.

إن الفرق بين النبـي وأعدائه كالفرق بين ذاته وذواتهم أو صحته وصحتهم أو مولده ومولدهم أو تاريخه وتاريخهم. إنه كالفرق بين الصخرة والصخرة أو بين النبتة والنبتة. إنه فرق وجود وكينونة لا فرق حب أو تقوى أو ذكاء أو طهارة أو شموخ.

* * *

إذا كنت قوياً هابك الناس ولعنوك، وإذا كنت ضعيفاً احتقروك وباركوك بل وامتدحوك، قاصدين أن يذلوك وأن يعلنوا عن ضعفك وعن الشماتة بك وعن تفوقهم عليك، وقاصدين أيضاً أن يدافعوا عن ضعفهم بضعفك. إن ضعفك وضآلتك يتحولان إلى كرم وإلى تمجيد لجيرانك وأعدائك. إنهما يتحولان إلى ثناء سخي على جيرانك ومنافسيك. وإذا كنت نافعاً للناس حمدوك ولم يحبوك. أما إذا كنت فاضلاً أو تقياً أو نظيفاً فقط فإنهم لن يهابوك ولن يحمدوك، وأيضاً لن يحبوك، وأيضاً لن يعاملوك، وأيضاً لن يجدوك أو يلتمسوك.

وإذا كنت شريراً وظالماً ذموك وحسدوك، ولكنهم لن يحتقروك. وإذا كنت نبياً أو قديساً آمنوا بك ومجدوك دون أن يطيعوك أو يتبعوك، أو لأنهم لن يطيعوك ولن يتبعوك، أو لأنهم يريدون أن يخالفوك ويعصوك.

ما أعظم مجد الأنبياء. إن كل مجدهم أن يمدحوا وأن يعصوا، وإن زعموا كل القادة دون أن يوجدوا أو حتى يستشاروا في أي موقف من المواقف. إنه لا يوجد ممدوح مهزوم منبوذ مثل النبـي.

وإذا كنت عظيماً قرأوا عنك وفسروك دون أن يفهموك، وأحياناً خافوك فصلبوك. أوه. إنهم لن يصلبوك لو لم تكن عظيماً أو رديئاً، أو لو لم يخافوك أو يحسدوك، أو لو لم يحبوك أو يكرهوك.

وإذا كنت غير موجود فإنهم لن يحاولوا أن يوجدوك أو يجدوك أو يبكوك، وإنهم أيضاً سوف يتفقون على ألا يمدحوك أو يذموك. وإنك أيضاً لن تعذبهم حينئذ، أي لن تعذب الآخرين حينئذ بالخوف منك أو بالحقد عليك أو بالاشمئزاز منك، أو بالتناقض والتنافس معك، أو بالتحديق في تفاهاتك وغباواتك عاهاتك، وبذنوبك، وبسخافاتك، وبهمومك وآلامك، وبكل احتمالاتك وممارساتك الأخرى. أو بالتحديق في قوتك وعبقريتك وتفوتك، وفي مزاياك الأخرى. وإنهم أيضاً لن يعذبوك. إن التحديق في الآخرين عدوان عليهم، وأيضاً عدوان منهم.

إنك إذا حدقت في إنسان فقد اعتديت عليه واعتدى عليك بتحديقك فيه.

أجل، إن وجودك عدوان على الآخرين أو على بعض الآخرين حتى ولو كنت أنت صانع سنفنهم للنزول بهم فوق القمر.

وإن وجود الآخرين أيضاً عدوان عليك.

إن وجودك مهما كان عبقرياً لا بد أن يكون عدوانك على أحد أو على شيء ما.

إن الوجود العبقري قد يكون هو أكثر الأشياء عدواناً على الناس وعلى الأشياء.

وإنك أيضاً، أي إذا كنت غير موجود لن تغضب الآلهة أو ترضيها، لن تصنع لها السرور والابتسام بإيمانك وصلواتك، ولن تصنع لها الأحزان والبكاء بجحودك وعصيانك وذنوبك ـ أو لن تصنع لها هذا أو هذا بآلامك ومسراتك. أليس الذي يصنع للآلهة السرور والابتسام يهجوها ويحقرها أكثر من الذي يصنع لها الدموع والأحزان؟ وهل يحقر الآلهة أو يهجوها مثل أن تكون مسرورة نشوى؟

وإنك أيضاً، أي حينما تكون غير موجود لن تجعل السماء بأجهزة مخابراتها ومباحثها وبموظفيها ومسئوليها تقاسي وتتعذب بمراقبتك وبالإحصاء عليك، وبتعديد ذنوبك، وبالتحديق في آثامك وفضائحك.

نعم، إن كونك غير موجود يعني إراحة السماء وإراحة أجهزتها من الإحصاء عليك ومن الاشتغال بك.

أجل، إن وجودك يتحول إلى تعذيب وتكليف باهظ للسماء ولجميع أجهزة مخابراتها ومباحثها وأجهزة الإحصاء فيها، ولجميع موظفيها ومسئوليها. إن وجودك في كل حالاته وصيغه لن يكون إلا عقاباً للسماء وخسراناً لها.

إنك كيفما كنت عدوان على السماء وإرهاق لها.

إنك حينئذ أي حين تكون غير موجود لن تصنع مجداً ولا عاراً للآلهة الواقفة على بابك بلهفة وتضرع، تنتظر منك وترجوك ببكاء أن تصنع لها المجد وبألا تصنع لها العار. وهل عار الآلهة شيء أقبح من مجدها؟ وهل مجد الآلهة شيء أفضل من عارها؟

إذن فهل الأفضل لك أو للناس أو للحياة أو للآلهة أو لأجهزة السماء المختلفة ولموظفي هذه الأجهزة والمسئولين عنها، أن تكون موجوداً أم ألا تكون؟ أليس وجودك هو أقسى فسوق بعيون الآلهة وبعيون جميع الأشياء؟

إذن هل كان وجودك أو إيجادك محسوب الخسائر والأرباح بذكاء وصدق وأمانة؟ لمن أنت ربح؟ وكيف يمكن أن تكون له ربحاً؟

ما أقساك أيها المؤمن حينما تصنع الأطفال... ما أشد قسوتك على الآلهة. كيف لا تخشى على الآلهة من الأطفال الذين تصنعهم؟ كيف لا تخشى عليها من زندقتهم وفسوقهم؟ كيف لا تخشى عليها من احتمالات ذلك؟

هل يوجد طفل واحد يحمل الأمان من أن يكون زنديقاً أو فسوقاً؟

ما أقساك أيها المؤمن على أجهزة السماء وعلى موظفيها وعلى المسئولين فيها. ما أفتك قسوتك على عيونهم التي لا بد أن تراك محدقة مشتومة مذعورة محقرة مسخوراً منها وبها. هل عيون السماء مزية لها وجمال فيها أم تعذيب وتشويه؟

أليس من الرحمة بالسماء ألا تكون لها عيون؟

هل قدرتك أنك بالأطفال الذين تصنعهم قد تصنع غضباً أو حزناً للإله الذي تؤمن به؟ إن كنت قدرت ذلك ولو احتمالاً صغيراً فهل يحتمل أن تكون مؤمناً أو محترماً للإله؟ وإن كنت لم تقدر أو تفكر في ذلك فما أعظم ذكاءك وأعظم اهتمامك بإلهك. إنك حينما تصنع طفلاً فأنت حتماً أما غير مؤمن بالإله لهذا لا تحتاط له ولا تخاف عليه، أو إنك غير مبال به ولا بأن يصيبه ما يصيبه من تحقير وغيظ ومن خروج وعدوان عليه.

ما أقساك أيها الإنسان الذي ليس مؤمناً حينما تصنع الأطفال. ما أقساك

على الحياة وعلى الآخرين. كيف لا تخشى على الحياة وعلى الآخرين وعلى المذاهب والأخلاق والتعاليم والنظم وعلى الصدق والعدل والذكاء والنظافة من الأطفال الذين تصنعهم؟ أليسوا تهديداً لكل ذلك؟ هل يمكن أن يجيء أي طفل دون أن يتحول إلى عدوان على الآخرين أو على المذاهب أو الأخلاق أو التعاليم أو النظم أو على الصدق أو الذكاء أو للنظافة أو العدل؟

إذن ما أقساك أيها المؤمن... وما أقساك أيها الإنسان الذي ليس مؤمناً.

* * *

إذا أنت قلت الحقيقة أو ما تحسبه الحقيقة وهي في غير حساباتك أو وهي أخذ منك أو محاكمة لك فلا بد أنك تريد وتنوي شيئاً آخر غير الحقيقة التي قلت. أو لا بد أنك بقولك لها تكيد لها، أو انك تعرض نفسك عرضاً مزوراً أو مرضياً، أو أنك تحاول أن تخفف من قسوة التناقض بينك وبينها، أو أنك تحاول إخفاء هذا التناقض، أو أنك تحاول بثمن رخيص وسهل أن تكفر وتعوض عن رفضك لها وخروجك عليها في مواقفك وممارساتك. أو لأنك تعلم أن قولك لها وثناءك عليها وحديثك الممجد عنها لن يسرع بها، ولن يهبها قوة أو انتصاراً. أو لأن فيك شخصين، شخصاً يمدح بالقول وشخصاً يرفض ويعادي بالنية والشهوة والسلوك. وهل يوجد إنسان واحد ليس فيه إلا شخص واحد؟ هل يوجد إنسان واحد ليس فيه أشخاص عديدون مناقضون له، وأيضاً متناقضون؟ أو أنك تكايد أو تغاضب بذلك شخصاً آخر أو أشخاصاً آخرين. إن الإنسان ليقاتل بقول الحقيقة التي لا يحترمها كما يقاتل بالسلاح وبقول الباطل الذي يحترمه أو الذي لا يحترمه.

إنك قد تجعل إعلانك عن الحقيقة التي لا تنويها أو تلتزم بها سلاحاً أو سباباً أو كيداً تطعن أو تخيف أو تهدد به إنساناً أو قوماً.

إن البشر ليقاتلون الحقيقة بالحقيقة والصدق بالصدق، بقدر ما يقاتلونهما أي الحقيقة والصدق بالباطل والكذب.

إننا قد نقول الحقيقة جداً لأننا نرفضها جداً. إننا قد نقول الحقيقة والصدق بكل الإعلان والجسارة لأننا نرفضهما ونخرج عليهما بكل الإعلان والجسارة.

أيها الملاك...
أنت أبشَع جـلّاد

«. . . إني لست واهب أجوبة. إني أحول كل جواب إلى حشود من الأسئلة التي لا جواب عن واحد منها. إني أحول كل جواب قد صاغته وعاشته وبصمت عليه كل الآلهة والمعلمين وكل المذاهب والمذهبيين إلى أعصى الأسئلة التي يموت كل إلٰه ومعلم ومذهب دون أن يجد عن واحد منها جواباً . . .

«. . . إني لست نبياً أو واعظاً أو زعيماً مذهبياً يضع أمام كل سؤال أعداداً هائلة من الأجوبة، يكون الموت والاتهام بالزندقة أو بالخيانة أو بالتآمر بعض جزاء وصفات من يشك في واحد منها، أو من لا يصاب بكل تعبيرات ومعاني الجنون حماساً للاقتناع بها كلها ودعوة إليها كلها ودفاعاً عنها كلها.

«. . . إني لست نبياً أو واعظاً أو زعيماً مذهبياً يضع فوق كل تساؤل عن أية دمامة أو تفاهة أو عبث أو غباوة أو قسوة أو ظلم أو بذاءة أو ألم أو جنون أو طغيان في الكون أو في المجتمعات أو في النظم والقوانين، إعداداً تكبر على الإحصاء من الأجوبة التي تحرسها وتعلنها وتفسرها وتوقعها وتباركها وتقاتل دونها، أشرس الآلهة وأغباها، أو أشرس المذاهب وأغباها، أو أشرس المخاوف وأغباها، أو أقوى وأشرس الجيوش وأغباها . . .

إني لست نبياً أو واعظاً أو معلماً أو زعيماً مذهبياً يسكت أو يرهب أو يقتل كل شجاعات كل العقول وكل تساؤلاتها بسطوة الآلهة، أو بسطوة المذاهب، أو بسطوة التعالم والتاريخ، أو بسطوة الجيوش. ما أوقح وأقبح سطوة الجيوش... ما أوقح وأقبح الجيوش حينما تذهب تعلم العقول ذكاءها وإيمانها... حينما تذهب تعلم العقول الاقتناع بالإله أو بالمذهب أو بالنظام أو بالزعيم أو بالمعلم... وحينما تذهب تفسر مزايا الإله أو المذهب أو النظام أو المعلم أو الزعيم، وتدلل على صدقه. وهل يوجد جيش لا يعلم ذلك؟ وهل وجد أو يوجد جيش لا يتحول إلى معلم ومفسر للآلهة وللأديان وللمذاهب وللعقول وللنبوات وللأنبياء؟

إني لست نبياً أو واعظاً أو معلماً أو زعيماً مذهبياً يسكت أو يرهبويميت كل ما في العقول والنفوس من احتمالات البسالة والذكاء. ولكني إنسان يحول كل الأشياء إلى أسئلة تتصاغر أمام أصغرها كل قوى وذكاء وطغيان كل الآلهة والمذاهب والزعماء والمعلمين... إنني لا أفسر الآلام والعاهات والأحزان والمظالم والتفاهات والعبث تفاسير تتحول إلى صلوات للآلهة والطبيعة، وإلى تكريم للإنسان. ولكنني أفسر المسرات واللذات تفاسير تتحول إلى افتضاح للآلهة والطبيعة وإلى عدوان على الإنسان إنني لا أضع التفاسير ولكني أبطل ما وضع منها... إنني لا أشيد الهياكل ولكني أهدم ما شيد منها... إنني هادم هياكل... إنني محرض لكل المعتقلين في كل الهياكل: ان انطلقوا، انطلقوا...».

* * *

أي صديقي... شكراً لك...

ما أصبر البشر على استعمالهم لأنفسهم، وعلى استعمالهم للعلاقات بينهم، وعلى استعمالهم للغاتهم ولمخاطباتهم ولمذاهبهم، وعلى استعمالهم لآلهتهم. ما أفظع استعمال البشر لآلهتهم.

ما أفظع تعامل البشر بأنفسهم وبالأشياء، أو ما أصبرهم على هذا التعامل، وما أغفرهم لدماماته.

ما أصبر البشر، أو ما أتفههم وأعجبهم وأبلدهم وأكذبهم، أو ما أكثرهم جموداً في ممارستهم لكل ذلك، أي في ممارستهم لكل معاملاتهم هذه مع أنفسهم ومع الآخرين، ومع أربابهم ومذاهبهم ولغاتهم، أو مع أحلامهم وفراغهم وضياعهم وأحزانهم، أو مع محاولاتهم الضائعة لكي يجدوا لوجودهم تفسيراً أو تسويغاً أو منطقاً، أو لكي يتحولوا إلى اعتذار وإلى دفاع عما لا يمكن الدفاع ولا الاعتذار عنه.

ما أكثر ما يقول البشر ما لا يعنون أو يريدون أو يفهمون، أو ما لا يعني شيئاً ولا يراد به شيء ولا يفهم منه أي شيء. ما أكثر ما يستمعون إلى قول من لا يريد أن يقول شيئاً أو أن يسمع شيئاً، أو أن يشير إلى شيء، أو أن يثبت شيئاً أو أن ينفي شيئاً، أو أن ينصر شيئاً، أو أن يهزم شيئاً... ما أكثر ما ينادون إلهاً لا يعرفونه ولا يعرفون وجوده ولا يعرفون أخلاقه أو مذهبه، ولا يعرفون أنه يسمع منهم أو أنه يستجيب لهم، بل وهم لا يتوقعون منه شيئاً، ولا يعتبون عليه أو يغضبون عليه أو يهجرونه إذا لم يفعل شيئاً وإذا لم يتوقعوا منه أن يفعل شيئاً.

ما أكثر ما يتخاطبون مع إلٰه لا يعرفون لغته ولا يعرفون أنه يعرف لغة، ولا يعرفون أنه يعرف لغتهم. وهل يعرف الإله أية لغة؟

ما أكثر ما يتعامل البشر بما لا يفهمون، وبما لا يريدون، وبما لا يصدقون، بل بما ينكرون ويرفضون ويكذبون. ما أكثر ما يبدون وكأنهم لغة لا يمكن فهمها ولا تفسيرها ـ كأنهم لغة لا يفهمها أو يفسرها أحد، حتى ولا الذين يتكلمونها. حتى كأنهم لغة تنطق فقط دون أن تفهم أو تفسر، ودون أن يريد أحد أن يكون لها تفسير أو معنى... حتى الذين يتكلمونها ويتعلمونها

ويستمعون إليها لا يفترضون أو يفكرون أو يريدون أو يطالبون أن يكون لها معنى أو تفسير. ما أكثر ما يتكلم البشر دون أن يكون في حسابهم أن يتخاطبوا أو يتعاملوا أو يسمع بعضهم لبعض أو يسمع بعضهم بعضاً. ما أكثر ما يتكلمون دون أن ينووا الكلام.

حينما قلت أيها الصديق في أو هذه الرسالة: «شكراً لك» هل أردت أنا بذلك شيئاً؟ هل أردت حقاً أن أهبك شيئاً أو أن أتقدم إليك بشيء، هذا الشيء هو الشكر؟ هل أردت أن أعلمك شيئاً أو آمرك بشيء أو أنهاك عن شيء أو أخبرك بشيء حينما قلت: «شكراً لك».

وهل فهمت أنت أني أعني شيئاً من ذلك بهذه الكلمة المهانة المسحوقة الشرف والكرامة؟ وهل تأثرت إذن بقولتي هذه؟ هل ارتجفت، هل تهيأت لفهمها أو للاستجابة لها أو للتعامل بها وبما تعني؟ هل تقبلت، هل رفضت، هل رضيت، هل غضبت، هل حدثت لك أية مشاعر جديدة؟ هل تغيرت عواطفك أو أهواؤك أو علاقاتك بي استجابة لهذه الكلمة، لأني وهبتك شكري، ولأنك أنت قد فهمت وقومت ما وهبت لك وما قبلت أنت أن أهب لك؟

أليس قولي لك شكراً لا تعني إلا: إنت تذلني أو تخيفني أو تحقرني أو تجعلني أخجل أو أحرج أو أكذب وأنافق أو أقول ما لا معنى له أو ما لا يعني شيئاً أو يعنى به شيء؟

نعم، ما معنى الشكر؟ هل فهمته أنت آخذاً متقبلاً له؟ هل فهمته أنا واهباً له؟ هل فهم أحدنا ما أعطى، وفهم الآخر ما أخذ؟ وهل أردت أنا أن أخدعك بأني قد أعطيتك شيئاً لآخذ ثمنه، أو لآخذ ثمن هذه الخديعة والانخداع؟

هل أردت أنت أن تخدعني بأن تأخذ مني شيئاً، أو بأنك قد تقبلت

مشكوراً متفضلاً خديعتي لك، أو بإقناعي بأنك قد اقتنعت بأني بارع في صناعة وصياغة الخداع - بأنك قد اقتنعت بأني قادر على أن أخدع الآخرين، قادر على أن أكون خادعاً، أو على أن أهب شيئاً حتى ولو خديعة الأصدقاء، حتى ولو جعلهم يقتنعون بالانخداع أو بخديعتي لهم؟

أليس الإقناع - حتى ولو خداعاً وانخداعاً - عطاء ما؟ أليس الخادع معطياً؟ أليس المخدوع معطى وآخذاً؟ ما هو العطاء؟ أليس الذي يعطينا خديعة أفضل أو أقل إيذاء لنا - ولو أحياناً - من الذي يعطينا حقيقة؟ أليس الخديعة أو الانخداع أنبل - ولو أحياناً - من الحقيقة؟

نعم، أليس الخداع عطاء والانخداع أخذا؟ أليس ولو أحياناً هما أفضل ما يعطى وأفضل ما يؤخذ؟

أليس الخيال أحياناً أفضل وأذكى وأنظف وأشرف من الرؤية؟ أليس الاحتلام أكثر إنسانية وتقوى وبراً بنا من اليقظة؟ أليست معايشتنا للأحلام خيراً لنا من ممارستنا للواقع؟ أليس إعطاؤنا الجنة كذباً أفضل من إعطائنا النار صدقاً؟ أليس إعطاؤنا النار وعداً أفضل من إعطائنا النار تنفيذاً؟ بل أليس أعطاؤنا الجنة وعداً أفضل من إعطائنا الجنة تنفيذاً؟ أليس الذي يحدثنا بلا نية ولا تفسير أفضل من الذي يحدثنا بنية وبتفسير؟

هل تقبلت شكري الذي وهبته لك أو استقبلته لأن تريد أن تستغلني بأخذك مني شيئاً هو شكري، لأنك تريد أن تسرق مني شيئاً، أو لأنك تريد أن ترضيني وتجاملني بتقبلك لما وهبتك وهو شكري؟ هل في مثل هذا الموقف أو في مثل هذه المخاطبات شيء من ذلك؟

هل نحن - أنت وأنا - نتعامل بهذه الكلمة - الشكر - بأن أسلوب أو بأية نية من أساليب أو من نيات التعامل؟ إذن لماذا نصر على إنفاق أنفسنا بمثل هذه الأساليب والوسائل العابثة؟ لماذا ننفق أنفسنا دون أن نقصد معنى

الإنفاق، ودون أن يكون هناك موضوع أو شيء ننفق عليه أو فيه؟ لماذا ننفق أنفسنا دون أن نتعامل بإنفاقها، ودون أن ننوي التعامل بهذا الإنفاق لأنفسنا؟

لماذا نصر على استعمالنا لأنفسنا ولغاتنا وعلاقات بعضنا ببعض هكذا بلا قصد ولا تفسير؟ هل نحن عابثون بهذه القسوة؟ هل نحن موجودون لكي يفرض علينا أن نبدد أنفسنا ووجودنا وطاقاتنا فقط كأن هذا التبديد هو المنطق العظيم الذي وجدنا من أجله؟ كأن هناك إلهاً لا يمكن فهمه، يحتاج إلى أن يعبد، دون أن يوجد أي أسلوب لعبادته سوى أن يبدد الموجود وجوده بين يديه هكذا؟

وهل لعبادة أي إلٰه من تفسير غير أن يبدد الموجود وجوده بلا تفسير؟ أليست كل مزايا الإله أنه جهاز تبديد؟

هل منطق وجودنا هو فقط أن نبدد وجودنا؟ وهل التبديد منطق؟ هل إرادة التبديد خطة؟

ولكن هل يوجد أن منطق لأي شيء غير منطق التبديد؟ هل لأي شيء تفسير أو معنى أو خطة أو وظيفة غير أن يبدد وجوده، أن يبدد ذاته، بأي أسلوب، وبكل أسلوب، وبلا أسلوب، وخروجاً على كل أسلوب، وباردا وأغبى أسلوب؟ أليس كل أسلوب وعمل هو تبديداً لأن كل وجود، كل أسلوب وجود هو تبديد؟

أليست النجوم، أليست الشمس، أليست كل الطبيعة بلا منطق ولا تفسير ولا معنى ولا خطة غير أن تبدد وجودها وذواتها بأغبى وأقبح أسلوب، بل بلا أي أسلوب؟

هل في الكون ما ليس تبديداً أو ما يستطيع أن يكون غير تبديد؟ هل في الكون ما كان خطة أو ما كان تنفيذاً لخطة أو استجابة لاحتياج أو لمنطق؟ إذن هل في الوجود ما يستطيع أن يكون غير تبديد؟

إن أقسى نموذج وأضحم نموذج لهذه القضية هو الإله. إن الإله هو أقسى وأكبر نموذج للموجود الذي لا منطق ولا تفسير ولا خطة ولا وظيفة لوجوده سوى تبديد وجوده، سوى تبديد ذاته وطاقاته بكل أسلوب، بلا أي أسلوب، بأبلد وأردأ أسلوب، بأكثر الأساليب وحشية، بكل أساليب أقصى أساليب الوحشية، بكل الأساليب التي هي أكثر وحشية من كل أساليب الوحشية.

أيها الإله. قف، ماذا تصنع، ماذا تصنع هنا؟ لماذا هذا أيها الإله؟ لماذا تمارس نفسك بهذا الأسلوب؟ لماذا تبدد طاقاتك هكذا؟ ألا تجد أسلوباً آخر؟ ألا تستطيع الصمت عن العمل، عن هذا التبديد لذاتك وطاقاتك بمثل هذه الوحشية، بهذا التفوق على كل وحشية؟

أيها الإله قف وسائل نفسك، قف وجب مساءلتك لنفسك قف لنسائلك أيها الإله. إن رغبتنا في مساءلتك تفترسنا. قف لماذا خلقت هذا الكون، لماذا خلقتنا، لماذا خلقت الحشرات؟ ولماذا تقتل هذا الكون وتقتلنا وتقتل الحشرات؟ لماذا تقتل ما خلقت، لماذا تخلق لتقتل؟ لماذا تهدم ما بنيت، لماذا تبني ثم تهدم؟

قف أيها الإله. هل رأيت نفسك؟ هل فكرت فيها؟ هل رضيت عنها؟ قف واسأل من رأوك أيها الإله.

لماذا تخلق، لماذا تبني، لماذا تصنع شيئاً حتى ولو لم تقتل وتهدم وتفسد؟ لماذا؟

هل لك خطة أو منطق أو هدف أو حاجة أو رسالة فيما تمارس وتعاني؟ هل أنت تخدم أحداً أو تطيع أحداً؟

هل يوجد عبث مثل عبثك أو في قسوة عبثك أيها الإله العظيم؟

أنت تبدد ذاتك ووجودك وطاقاتك. أنت فقط تمارس التبديد حينما

تخلق وتبني وتعمل حتى ولو لم تقتل وتهدم وتنقض. أن عملك لا يكون إلا تبديداً حتى ولو لم تناقض نفسك، إن وجودك لا يكون إلا أقسى أساليب التبديد حتى ولو قضيت كل وقتك في الصلاة لنفسك وفي الثناء على نفسك.

أنت تبدد ذاتك وطاقاتك ووجودك ضدنا وضد الحشرات وضد الطبيعة. ألا تستطيع أن تضمت وتكف عن التبديد؟ إن صمت الآلهة لن يكون إلا أسلوباً شاملاً من أساليب الصمت عن التبديد. هل أنت مسخر أو موظف أو محكوم عليك بأن تكون ضد الذكاء وضد المنطق وضد الحكمة والوقار والاحترام للنفس؟

ألا تستطيع أن تبدد نفسك ـ إذا لم يكن بد من التبديد ـ باسلوب آخر، باسلوب لا يتحول إلى معاناة أو تعذيب أو تشويه لنا أو للكون أو للحشرات أو إلى هجاء لنفسك وتشويه وتعذيب لها بلا ثمن؟ هل يوجد أفضل من أن تتوقف أيها الإله عن التبديد لنفسك، أي عن أن تعمل أي شيء؟ ما أنبل صمتك عن العمل...

قف أيها الإله. ماذا تصنع؟ لماذا تصنع؟ لماذا تصنع بهذا الأسلوب؟ لماذا تصنع ضدنا، ضد الآخرين؟ جرب أن تصمت أيها الإله، جرب أن تصمت عن العمل، عن تبديد ذاتك. جرب الوقار أيها الإله. ما أجمل أن يصمت الأله... أن يصمت عن العمل وعن العطاء وعن الرحمة وعن التفكير والحب والذكاء...

ولكن لا تجرب. أنت معذور ومغفور لكا أيها الإله. أنت تبدد وجودك، تبدده ضدنا وضد الآخرين. ولكننا نفهمك ونعذرك ونغفر لك لأننا نحن أيضاً نبدد وجودنا، نبدده أيضاً ضد الآخرين...

إننا نحن وأنت متشابهون ـ إننا لسنا أفضل منك، إنك لست أفضل منا. إننا مستوى واحد وصيغة واحدة.

لهذا نفهمك ونعذرك ونغفر لك أيها الإله. ولكن لا. هل يمكن الغفران للإله؟

إننا نعذرك ـ ونغفر لك أكثر مما نفعل لغيرك أو لأنفسنا. إنك أكبر، إن الشيء بقدر ما يكون كبيراً يكون أكثر احتياجاً إلى تبديد وجوده، ويكون أكبر وأبهظ تبديداً. إن الشمس أحوج إلى تبديد وجودها وأكثر تبديداً لوجودها من شمعة المعبد. لهذا أنت أيها الإله أحوج من كل شيء ومنا إلى تبديد ذاتك، وأكثر منا ومن كل شيء تبديداً لذاتك. إن العبقري أحوج إلى تبديد ذاته وأعلى تبديداً لها من الإنسان الصغير. إن العبقري يبدد ذاته ليتحول إلى أجهزة تبديد يبدد بها الآخرون ذواتهم.

إننا لهذا نعذرك ونغفر لك أيها الإله أكثر مما نعذر أنفسنا أو نغفر لها، أكثر مما نعذر أي شيء أو نغفر لأي شيء. إننا نعذرك ونغفر لك أكثر مما نعذر العبقري ونغفر له حينما يبدد ذاته ليتحول إلى أجهزة تبديد يبدد بها الآخرون ذواتهم.

أيها الإله افعل ما شئت، بدد ذاتك بكل إسلوب، حول تبديدك لذاتك إلى أقسى تشويه وتعذيب ومعاناة لنا وللطبيعة وللحشرات البريئة. افعل ما شئت أيها الإله فقد غفرنا لك لأننا لا نستطيع أن نقاومك أو نحاكمك أو نعاقبك أو نعاتبك بأكثر من الغفران لك والاعتذار عنك. إن أردأ ما فيك أيها الإله أنه لا يمكن محاسبتك أو محاكمتك أو معاقبتك أو معاتبتك بأقسى أو بأقصى من الغفران لك أو من النسيان لك أو من التخطي لك أو من العجز عن القبض عليك.

ما أقساك أيها الغافر، أيها الغافر للالهه. ما أعظم ذنبك، ما أعظم وأكبر ذنبك أيها الإله، أيها الإله المغفور له، أيها الإله المحتاج إلى الغفران الأشد احتياجاً إلى الغفران من كل المحتاجين إلى الغفران. هل أنت مسرور

أيها الإله بالغفران لك؟ إنه لغفران أقسى منه العقاب. إنه غفران من لم يجدوك لكي يحاكموك ويحاسبوك ويعاقبوك. إنه إذن ليس غفراناً.

* * *

وحينما نقول للإله: «شكر لك أيها الإله» هل نريد حقاً أن نهبه شكرنا، أن نصنع لقلبه السعادة والابتهاج والرضا بشكرنا؟ هل في حسابنا أن نحسن إلى الإله، أن نرفع إليه شيئاً يسره؟

وهل في حسابنا إن الإله محتاج إلى مجاملات لفظية أو عاطفية لإعطائه مستويات وظروفاً نفسية أكثر ابتهاجاً وغناء؟

وهل فهمنا معنى الشكر الذي وهبناه للإله؟ وهل فكرنا في معناه، أو حاولنا أن نفكر؟ وهل أردنا معناه، كل معناه؟ وهل في حسابنا أن معنى الشكر للإله هو فقط أن نقول له: شكراً أم أن له معنى آخر أكبر وأثقل جداً، يؤدي بوسائل أكبر وأثقل جداً؟ وهل في حسابنا إننا سوف نؤدي له ذلك المعنى الآخر بتلك الوسائل الأخرى؟ وهل فكرنا في معنى هذا الالتزام للإله أو قدرنا حساباته، أو حاسبناه بمحاسبتنا لقدرتنا عليه؟ هل وثقنا بأن قدرتنا متكافئة مع هذا الالتزام؟

وهل اقتنعنا بأن الإله يريد منا أن نشكره، أو أن شكرنا له يفيده أو يرضيه أو يسره، أو حتى يسمعه أو يدري به؟ هل اقتنعنا بأن الإله مثلنا يعجبه أن يشكر، أن يشكره الصادقون والكاذبون، الأذكياء والأقوياء والمتطهرون، وأيضاً الأغبياء والضعفاء والعاجزون عن التطهر؟ هل اقتنعنا بأن الإله مثلنا يعجبه أن يشكر، أن يشكره حتى الذين لا يجدون أي سبب من أسباب الشكر، حتى الذين يجدون كل أسباب السخط والغضب والإنكار، حتى الذين يتحول شكرهم إلى أعنف أساليب الاستهزاء والهجاء لأنهم يشكرون حيث يجب أن يرفضوا ويتهموا ويحاكموا من يشكرون.

حتى الذين تنطلق كلمات الشكر من أفواههم وكأنها أفتك الأسلحة وأقدرها على القتل، مسددة إلى أخلاق وضمائر ونيات أولئك الذين يتلقون منهم الشكر ويستمعون إليه بإعجاب وكبرياء وبداوة أخلاق وجلافة نفس؟
شهل اقتنعنا بأن الإله سوف يصدق ويفرح حينما يسمع ممن أوقع به كل الالام والأحزان والعاهات يقول شكراً لك أيها الإله الطيب وهل عرفنا أو وجدنا في الشكر معطى ومقبولاً معنى نبيلاً أو كريماً أو ذكياً؟ أليس الشكر دموعاً أو أحزاناً أو هزيمة أو ضعفاً أو احتجاجاً أو تورطاً أو استعطاء أو خداعاً أو سباباً بلغة أخرى؟

أليس أحياناً فراغاً وضيقاً وتقليداً وبلادة ومطاردة وسخفاً؟

أليس الارتياح إلى الشكر والترحيب به والاستزادة منه والتقبل له والجزاء عليه تفاهة وضآلة وبداوة وطفواة وقسوة وإذلالاً وصلفاً؟

أليس أحياناً أصغر وأقل من ذلك؟ أليس أحياناً هو أكبر من كل هجاء وخسة؟

وهل عرفنا واقتنعنا بالأسلوب الذي يجب أن نصوغ وأن نقدم به شكرنا إلى الإله، والذي لا بد أن يقبله وأن يرضى عنه أسلوباً لشكره أو أفضل الأساليب لشكره؟

وهل عرفنا بأسلوب جيد أن شكرنا له لن يغيظه أويغضبه أو يحرجه أو يخجله أو يورطه أو يسيء إليه، إلى سمعته أو إلى أخلاقه أو إلى ذكائه أو إلى وقاره واتزانه، أو أنه لن يلزمه بشيء لا يريده أو لا يستطيعه أو لا يجرؤ عليه؟

أليس الشكر أحياناً إلزاماً بشيء أو مطالبة بشيء؟ أليس أحياناً إحراجاً؟ أليس من يشكرنا ـ كما يعجب بنا، أو يصلي لنا، أو يعتمد علينا ـ أليس يسطو على مشاعرنا ويدقها، ـ أليس يطارد مشاعرنا ويسقط عليها؟ بل أليس يهددها بالعقاب والرفض والهجاء؟ أليس الشكر هو دائماً أسلوباً من أساليب

الهجوم؟ أليس الشاكر هو دائماً محارباً؟ أليس الشاكر هو دائماً مهدداً للمشكور؟

لقد شكرنا بشروط، بشروطه هو، إذن يجب الخضوع لهذه الشروط وإلا فإنه سيعاقبنا ويرفضنا ويكفر بنا. لقد شكرنا أو أعجب بنا أو صلى لنا أو اعتمد علينا. إذن فقد يفعل بنا النقيض إذا لم نخضع لشروطه أو إذا لم نكن عند ظنه، أو إذا لم نكن حيث تتجه أهواؤه. إن الشاكر ليس إلا شروطاً مهددة، إنه شروط يفرضها ويكتبها جانبواحد.

وهل عرفنا أن الإله يعرف كل لغاتنا التي نكلمه بها والتي نخاطبه بها حينما نصلي له وحينما نشكره على ما فعل بنا أو على ما فعل ضدنا أو على ما فعل دون أن يكون لنا أو ضدنا ـ وأيضاً حينما نصلي له ونشكره على ما لم يفعل وعلى ما لا يمكن أن يفعل، وعلى ما نحاكم ونعاقب به غيره لو فعله؟

هل عرفنا أنه يعرف كل هذه اللغات التي نصلي ونشكر بها؟ هل عرفنا ذلك؟ هل عرفناه؟

لماذا لا توجد في حساباتنا احتمالات أخرى؟ لماذا لا يوجد في حساباتنا أن للإله لغة أخرى لا يعرف غيرها أو لا يريد أن يخاطب بغيرها أو أن يسمع غيرها؟

هل عرفنا أنه يعرف أية لغة من اللغات؟ لعله لا يعرف أية لغة. أليست اللغة تعدداً ومجتمعاً؟ هل يمكن أن تصنع الوحدانية أية لغة؟ هل الوحدانية خالقة لأية لغة؟ هل الذي يكون وحده ويعيش وحده يحتاج إلى اللغات وإلى تعلمها؟ أليس تعلم اللغات معاناة؟ هل الذي لا يحتاج إلى المعاناة يحتاج إلى تعلم أية لغة؟ أليس الذي يخاطب الإله بأية لغة يهجوه كالذي يحاول أو يريد أن يعلمه أية لغة؟

أليس اللغات تساؤلاً وبحثاً عن الفهم ومحاولة من محاولات الحياة في

الآخرين ومع الآخرين ومن محاولات القرار إليهم ومضاربتهم ومشاتمتهم، ومن محاولات الفرار من الذات ومن الحدة؟

إذن كيف يمكن أن يكون الإله محتاجاً إلى أية لغة؟ إن احتياجه إلى أية لغة وإلى ممارسة أية لغة هجاء أليم له. إن معرفة اللغّات والتكلم بها والاستماع إليها وقراءتها ليست أخلاق أو مستويات إله.

إن كل الناس في جميع العصور كانوا يصلون للإله ويدعونه بكل لهفة وضراعة وإخلاص وإيمان، ويلقون إليه بكل احتياجاتهم وآمالهم وهمومهم بكل اللغات، وعلى جميع مستويات الصدق والحب والاقتناع والشوق والنظافة والتطلع، لقد كانوا يهبونه كل ثقتهم بلا حدود، محولين هذه الثقة إلى صراعات وإلى مطالب لاهثة متلهفة، مسقطة عن نفسها كل كرماة وكبرياء وشجاعة وإباء.

لقد كان كل الناس في جميع العصور وفي جميع المجتمعات وتحت كل الظروف وفي كل المعابد، اتباعاً ورعايا لكل الأنبياء والدعاة، لكل الكتب المقدسة ـ لقد كانوا يهتفون ويضرعون ويبكون متقدمين بكل طلباتهم واحتياجاتهم ومناشداتهم وأحزانهم وآمالهم واقتناعهم وحبهم وخوفهم وصدقهم، إلى الإله بكل اللغات، بأساليب ومذلات ترق لها الصخور، وترق لها الأبالسة وتخجل منها وتخجل لها الأبالسة. ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكن يستجيب لأحد، أو يرق لأحد، أو يخجل لأحد، أو يخجل من أحد. لقد كانت جميع دعوات البشر ومطالبهم الضارعة الباكية تسقط تحت قدميه، ودون أذنيه وبعيداً عن أذنيه، لا تجرحهما، ولا تقلقهما. لقد كانت جميع تضرعات البشر ودعواتهم ومطالباتهم تموت تحت قدمي الإله وصمته دون رثاء.

لقد كان محتوماً أن تموت الوحوش وتتفتت الصخور حزناً ورثاء لدعوات ومطالب البشر ولضراعاتهم وصلواتهم المتهاوية تحت إقدام الإله وبعيداً عن أذنيه، معزومة ذليلة مرفوضة، لو كانت الوحوش والصخور تعرف

اللغات التي كان البشر يدعون ويتضرعون ويصلون بها إلى إلههم الذي لا يستجيب ولا يطالبهم أن يكفوا ولا يقنعهم بأن يكفوا. إنه لم يكن يستجيب لتضرعاتهم. إذن لماذا لم يفهمهم ذلك، ويطالبهم أو يقنعهم بالا يدعوا ويتضرعوا؟

إن أساليب القسوة وصوره الدمامة في هذا الكون لا ضبط لها ولا رحمة فيها. ولكن أليس أقسى هذه الأساليب قسوة وأكثره هذ الصور الدميمة دمامة هي العلاقات بين البشر المؤمنين والإله... هذه الدعوات والتضرعات والصلوات والمناشدات الهاتفة المنادية الباكية أبداً، والمؤملة أبداً، والمكررة المؤمنة المنتظرة أبداً، والمرفوضة أبداً.

هذه الدعوات والتضرعات التي لا تجد من يرثي لها أو يخجل لها ولا تكره نفسها، ولا تخجل من نفسها، ولا تغضب لنفسها من كثرة وطول الابتذال والتكرار والرفض.

هذه الدعوات والتضرعات التي لا تجد من يرثي لها أو يخجل لها أو يغضب لها أو ينتصر لها.

وهذا الإله الصامت أبداً، والرافض أبداً، والغائب أبداً، والمشغول بنفسه أبداً، والقاسي أبداً، والمعرض أبداً ـ هذا الإله الذي لا يمل أن يصمت، ويرفض ويعرض ويقسو ويهزأ.

هل توجد قسوة أو دمامة أكبر من ذلك، أكبر أو أبشع من هذه العلاقات بين هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ويتضرعون ويصلون ويظلون أبداً مرفوضين، يلحون ويؤملون وينتظرون ويؤمنون، وبين هذا الإله الصامت الرافض الغائب المتهلي القاسي المعرض أبداً، أبداً؟

هل توجد وحشية أو دمامة أفظع من هذه العلاقات بين الإله والمؤمنين، من انتظارهم وإخلافه، ومن صراخهم وصمته، ومن أيمانهم

ورفضه، ومن حضورهم ومغيبه، ومن انهيارهم الدائم وصلابته الدائمة، من دموعهم الدائمة ومن قدرته الهائلة على القسوة في مواجهة هذه الدموع؟

لماذا هذا؟ لماذا لا يرق الإله أو يسمع أو يستجيب لهذه الدعوات والتضرعات؟ لماذا لا يفعل شيئاً من ذلك؟ لماذا لا يرق ويستجيب لو لبعض هذه الدعوات والطلبات ولو حياء أو تهذباً أو فراراً من قسوة المناشدة وديمومتها ومضايقاتها؟ لماذا لا يسمع؟ لماذا لا يتعذب سمعه؟

هل توجد مناشدة منتظرة مثابرة كمتاشدة المؤمنين، وهل يوجد رفض مثابر مقنط كرفض الإله؟

هل يمكن أن يوجد أي احتمال لموقف الإله هذا سوى احتمال واحد، فيه كل الدفاع عنه والتكريم له، فيه تنزيهه والارتفاع به عن الاحتمالات الأخرى الفظيعة؟

هل يمكن أن يكون لهذا أي تفسير أو منطق غير الافتراض بل الاقتناع بأن الإله لا يعرف أية لغة من اللغات. إنه لا يدري بالطلبات الضارعة الدائمة التي تقدم إليه. إن المؤمنين يخاطبونه بلغة لا يعرفها. وهل يوجد تفسير للدفاع عن الإله مثل هذا التفسير؟ بل هل يوجد تفسير غير هذا التفسير للدفاع عن صمت الإله أمام مواكب البشر الراكعين تحت قدميه يدعون ويؤملون دون أن يقول ولو مرة واحدة لواحد منهم: انهض فقد قبلت دعوتك.

... والمشكلة الدائمة أن المؤمنين لن يعرفوا هذه الحقيقة ولن يحولوها ولو إلى شك. إنهم سيظلون أبداً يعتقدون بأنه يعرف كل لغاتهم، حتى لغاتهم التي يجب أن يتنزع ويتقدس عن معرفتها وعن الاستماع إليها وعن مخاطبته بها. وهل يمكن أن يفهم المؤمنون ـ ولو أحياناً ـ أنه ليس شرفاً أو مجداً للإله دائماً أن يعرف لغاتهم، وأنه ليس نقصاناً فيه ولا ألماً له ألا يعرف لغاتهم أو كثيراً من لغاتهم؟

والمشكلة الدائمة الأخرى انهم أي المؤمنين لو عرفوا هذه الحقيقة، لو عرفوا أن الإله لا يعرف أية لغة من لغاتهم لما وجدوا أو عرفوا وسيلة أخرى يخاطبونه ويرفعون إليه طلباتهم ومناشداتهم بها. وحينئذ قد يصمتون البتة عن مناشدة الإله والتضرع إليه ومطالبته بأي شيء. وهذا قد تكون فيه راحة ووقار لهم، أي أن فعلوه أو لو فعلوه.

وفي احتمال آخر قد يحاولون أن يخترعوا لغة جديدة، ثم يحاولون أن يحولوها إلى لغة عالمية يتكلمها كل البشر، ثم يصنعون وسيلة ما، لكي يعلموا الإله هذه اللغة التي يتكلمونها جميعاً، لكي يخاطبوه ويتقدموا بطلباتهم وضراعاتهم إليه بها.

وقد يكون في القضية احتمالات أخرى قد تكون أفضل، أو أقل بشاعة وإرهاقاً وسخفاً. وهل يوجد في جميع الاحتمالات الرديئة والمخيفة احتمال أكثر قبحاً وقسوة وبلادة مما هو حادث؟ هل يوجد في جميع الاحتمالات أكثر سوءاً من أن يظل المؤمنون يدعون ويتضرعون وينتظرون، بينما يظل الإله صامتاً رافضاً أما لأنه لا يعرف ما يقولون لأنه لا يعرف اللغات، وأما لأنه لا يريد أن يستجيب ولا أن يبالي بما يقولون؟ أيهما أفظع: أن يكون الإله لا يعرف اللغات التي يخاطب بها أو لا يريد أن يجيب أو لا يستطيع أن يجيب؟ أليس كل إله لا بد أن يكون مصاباً بإحدى الآفات الثلاث: لا يعرف اللغات أو لا يريد أن يستجيب أو لا يستطيع ذلك؟

* * *

وحينما دعوتك «بصديقي» هل كنت أنا مقتنعاً حقاً بأنك صديقي؟ وهل أردت ذلك، وأردت إعلانه والاعتراف به؟ هل أردت تقرير هذه الصداقة وتثبيت معانيها وقوتها وديمومتها؟

هل فهمت تفاسير الصداقة وقررت الإلتزام بهذه التفاسير سلوكاً

واعتقاداً مهما كانت تكاليفها وهمومها وذنوبها وتوريطاتها؟

وماذا قصدت أو أردت من إعلانها أي من إعلان الصداقة؟ ولمذا أخبرتك؟ هل أردت أن أؤدي رسالة كونية أو إنسانية؟ وهل عرفت إنك تقبل أن تكون صديقي أو أن أكون أنا صديقك، وأن أعلن عن ذلك؟ أو هل عرفت أنك قد صدقتني حينما زعمتك ودعوتك صديقي؟

وكيف جرؤت على أن اجعلك صديقي بلا تعاقد... دون موافقتك بل دون استئذانك أو سماع رأيك؟

أليست الصداقة عقداً أو تعاملاً بين اثنين أو أكثر؟ أليس محتوماً أو مطلوباً أن يرضى الطرفان بهذا العقد والتعامل به، ويوافقا عليه. وإلا كان أسلوباً من أساليب العدوان أو المطاردة أو الاضطهاد أو السخف أو النذالة؟ ألا يمكن أن يكون في الصداقة ولو أحياناً كل معاني وتفاسير وأساليب وحوافز ونيات المعتدي والمطارد والمضطهد والسخيف والنذل؟

وإذا لم يكن الصديق هو كل هذه الصفات والمعاني أو بعضها فما هو إذن؟ إن الصداقة ليست بحثاً عن إله يراد منه ألا يكون موجوداً.

كيف تفرض على إنسان صداقتك دون استئذانه ورضاه وموافقته، ودون أن تعلم بملاءمة صداقتك له؟ أليس مثل هذه الصداقة أسلوباً فظيعاً من أساليب السقوط على الآخرين؟

أليس في الصداقة، في كثير من الصداقات كل معاني السقوط على مشاعر الآخرين وعلى أخلاقهم وأفكارهم وعيونهم، بل على طواتهم وعلى مثلهم وقيمهم وعلى حدودهم الاجتماعية والتاريخية والإنسانية؟ ولكن أليس سقوط الشيء على الشيء معنى من معاني الوجود؟ أليس سقوط الإنسان على الإنسان احتياجاً في الساقط والمسقوط عليه؟ أليس تداوياً من تفاهة وجودهما وتسويغاً لما لا يمكن تسويغه؟

وحينما دعوتك بصديقي هل عرفت أنا إنك تعرف معاني الصداقة، أو إنك قد تستجيب لها أو تلتزم بها، أو إنك قد تراها ـ أي قد ترى الصداقة ـ عقداً رابحاً في حساباتك، أو عقداً ملائماً لك؟ ألا يحتمل أن يكون في هذا فرض للصداقة من جانب واحد؟ أليس مقل هذا الفرض ظلماً وعدواناً وسخفاً ووقاحة وبلادة ومخاطرة؟

ولكن أليست الحياة بدون هذا الظلم والسخف والعدوان والوقاحة والبلادة والمخاطرة شيئاً أكثر قبحاً وعدواناً وسوءاً؟

وهل عرفنا أنت وأنا إننا متشابهان أو متكافئان أو متلائمان أو قادران على أن نكونا صديقين، وأن نسعد بهذه الكينونة أو أن نرضى عنها؟ هل عرفنا أن خصائصنا أو أمزجتنا أو مستوياتنا أو أخلاقنا لا ترفض ذلك، أو أنها تأذن به وتباركه، وتجعل منه شيئاً طيباً أو مفيداً أو حتى مقبولاً؟ أليس التلاؤم والتوافق، أو حتى التقارب والتشابه بين الصديقين أو الأصدقاء في المستويات والأهواء والأخلاق والخصائص والظروف والذكاء مطلوباً إن لم يكن مفروضاً ومشروطاً؟

ولكن أليس التنافر والتفاوت والتناقض والتصادم أيضاً شيئاً مطلوباً ومريحاً إن لم يكن مطلوباً ومريحاً أكثر؟

* * *

إذن ما أصبر البشر، أو ما أعجبهم، أو ما أشد تفاهتهم وغباءهم وأكثر أكاذيبهم، أو ما أجمد جمودهم في ممارساتهم لأنفسهم وللغاتهم ولمخاطبات بعضهم لبعض ولعلاقات بعضهم ببعض، ولممارساتهم لأربابهم ومذاهبهم وأفكارهم ونظرياتهم وعواطفهم ولجميع مواقفهم المماثلة، بل ولممارساتهم لأعضائهم ولأحزانهم ولمسراتهم.

ما أصبر البشر وما أعجبهم وأتفههم وأكذبهم وأضيعهم وأبلدهم

وأكثرهم جموداً وسخفاً وضياعاً وتبدداً وتبديداً لوجودهم. ولكن هل يكونون أكثر سعادة وذكاء ومجداً لو لم يكونوا كذلك؟ وهل يكون حينئذ إعجاب الشمس بهم وحبها لهم، أو إعجاب الإله بهم وحبه لهم أعظم أو أنبل؟

ما أفظع هذا. إني أنقد وأرفض، ثم أفعل بإصرار وحماس وإعلان وشهوة كل هذا الذي أنقده وأرفضه. ما أفظع هذا، ما أفظع ممارسة الإنسان لنفسه، لوجوده. ما أفظع ممارسة كل موجود لوجوده. إننا لا نرى هذه الفظاعة لأنها هي التي تصوغ عيوننا، وهي التي تصنع مشاعرنا بها ونحوها. إنها هي الناقدة لنفسها والمحابية لها المدافعة عنها. إننا نحن المرآة ونحن الوجه. ما أسخف هذا. ولكن أليست أصدق مرآة يرى بها أي وجه وجهه هي نفس ذلك الوجه؟ أليست مرآة كل شيء هي وجهه؟

هل يوجد من يرى وجهه بغير وجهه؟ هل يوجد من يستطيع أن يرى المرآة إلا بوجهه؟

* * *

لقد أردت أيها الصديق أن تبالغ في مجاملتي وفي الثناء علي، رثاء لآلامي وتعويضاً عليها، فوصفتني بما ظننته كل التمجيد والتعزية والتعويض والعطف على أحزاني العقلية والعاطفية والتاريخية والذاتية.

لقد وصفتني أيها الصديق بالملاك. وحتماً قد وضعت في خيالك وحساباتك ـ حينما ألقيت علي بهذا الوصف ـ كل ما في خيالك وحساباتك عن السماء من نظافة ومجد وارتفاع وتقوى. إنك حينما تفضلت بوصفي بالملاك كنت حتماً ترثي لي إشفاقاً على من هول شموخي وتقواي ونظافتي وأمجادي التي تعيش في السماء والتي تعيش كل فضائل والتزامات السماء لأنك تعرف حتماً أن معاناة أخلاق السماء ومعاناة مستوياتها تعذيب وليس مزية. إن كونك شمساً إرهاق لك لا تفضيل.

ولكن هل عرفت حقاً إنك قد جاملتني أو إنك قد أثنيت علي حينما

وهبتني هذا الثناء أو هذا الهجاء؟ ألا يقع في تصورك احتمالا آخر؟ ألا يقع في تصورك ـ ولو احتمالاً ـ إنك قد بالغت جداً في تحقيري وذمي حينما أطلقت عليّ كلمة «الملاك»؟ أنت حتماً كنت في نيتك تمجدني جداً بهذا الوصف كما كنت حتماً ترحمني من قسوة فضائلي علي لأنها فضائل ملاك. وهل يوجد من هو أحق بالرحمة ممن يعيش فضائل الملاك؟

هل استأذنتني في إطلاق هذه الكلمة علي قبل إطلاقها؟ هل عرفت أنها امتداح، هل عرفت أنها ليست أقسى أساليب الهجاء؟ هل عرفت أن ذلك سوف يرضيني؟ لماذا لم تقدر النقيض؟ لماذا؟ هل أردت هجائي؟ لماذا؟ لا أظن إنك قد أردت ذلك. إذن لماذا فعلت؟

نعم، أن هذا الثناء ثناء تاريخي. لقد مضى كل الناس في كل التاريخ يثنون على من يريدون المبالغة في الثناء عليه بأن يصفوه بالملائكة. لقد مضى الناس يقلد بعضهم بعضاً في هذا الثناء. وقد كانت ضمائر كثيرين منهم تعتذر إلى الملائكة. لقد كان أصحاب هذه الضمائر يعتقدون أنهم يحقرون الملائكة ويصنعون لهم الغضب والشعور بالحقارة والمرارة حينما يمتدحون أحداً بأنه شبيه لهم في شيء من مزاياهم.

إن أحداً لم يعتد أنه يحقر من يجعلهم أشباهاً للملائكة. لقد كان الملائكة نماذج خرافية لتصورات طفولتنا وانهزام آذاننا.

لقد مضى الناس ـ رافضين لاحتجاج ضمائرهم ـ يقلد بعضهم بعضاً في امتداحهم لمن يريدون أن يبالغوا في امتداحه بأن يصفوه بالملاك، دون أن تجعلهم ضمائرهم المحتجة يهابون هذا التحقير المبالغ فيه جداً للملائكة. إن الرغبة في التصورات الضخمة تنتصر دائماً على وقار الإنسان وعلى ذكائه وعلى تقواه وضميره. إن التصورات الضخمة نوع من التعويض عن الفقدان الضخم الأليم وعن كل أنواع العجز.

حتى الأديان والكتب المقدسة لقد فعلت ذلك ـ لقد قلدت في هذا الثناء. لعل الأديان والكتب المقدسة هي دائماً تقليد وإتباع مهما بدت أو ظنت ابتكاراً وتجديداً.

ولكن هل الأديان والكتب المنزلة تقلد؟ لعلها هي المقلدة. لعلها هي التي صنعت هذا التقليد، أو هذا الثناء الذي تحول إلى تقليد؟ لعل الأديان والكتب المقدسة هي البادئة بتصور الملائكية ثناء ومجداً.

ولكن هل يحتمل أن يكون ذلك إفتراضاً مقبولاً؟ هل يحتمل أن الأديان والكتب المنزلة هي التي تبتكر للناس تقاليدهم وتعاليمهم بل أو أخلاقهم أو مشاعرهم أو لغاتهم، أو حتى تقواهم وصفات أربابهم؟

هل النبـي أو الدين أو الكتاب المنزل يبتكر نفسه أو يصوغها أو يجدها داخل ذاتها؟ هل يجدها موضوعة تنتظره داخل المغارات والكهوف المهجورة، أو يقرؤها مكتوبة على النجوم في تطلعاته إليها؟

هل النبـي أو الدين أو الكتاب المنزل يخلق نفسه أم يجدها في السوق ـ هل يجد نفسه في السوق، في السنة ونيات وأماني وجوع وأحلام الجماهير الضعيفة المتخفلة البدوية جداً، أم يجدها فوق المجرات؟

هل الأنبياء والأديان والكتب المقدسة تعطي المجتمعات أم تأخذ منها، هل تعلمها أم تتعلم منها؟

هل تتعلم منها وتعلمها ومن يعلم المعلم؟ وكيف يتعلم، وكيف يصبح معلماً؟ وإذا كانت الأديان والأنبياء والكتب المقدسة تعطي المجتمعات وتعلمها فهل تعطيها وتعلمها عطايا وتعاليم مستوردة من السماء ومصنوعة في السماء وعلى مقاسات السماء، أم تعطيها وتعلمها ما أخذت وما تعلمت منها؟

هل تعطيها وتعلمها كبرياء وذكاء وضخامة السماء، أم تعطيها وتعلمها

اتضاع السوق وتلوثها وأوهامها وغباءها وبذاءاتها وحماقاتها وصغائرها الأليمة؟

هل الأنبياء قوم يقدمون من السماء ليعلموا منطق من يعيشون في السماء أم يخرجون من الأرض ليعلموا منطق من يعيشون آلام وضعف الأرض؟

هل الأنبياء معلمون أم متعلمون؟ هل هم أنبياء أم أتباع؟ هل الأنبياء قادة أم رعايا قد تحولوا إلى قادة لأنهم أكثر الرعايا تعبيراً عن مستويات وأخلاق الرعايا؟ لأنهم أكثر الرعايا استيعاباً لمعاني ومنطق الرعايا؟ هل الأنبياء يعلمون الجماهير نبواتهم أم الجماهير تعلم الأنبياء مستوياتها وسذاجاتها وأخلاقها؟

هل الأنبياء قوم يعلمون السوق المنطق أم هم قوم يتعلمون من السوق الخروج على المنطق وضعف المنطق؟

أيهم الأنبياء، وأيهم الجماهير؟ هل الأنبياء هم أنبياء الجماهير، أم الجماهير هي أنبياء الأنبياء؟ هل الأنبياء أكبر من الجماهير أو فوق الجماهير؟ هل هم أذكى أم أعلى صراخاً؟

هل الأنبياء والأديان والكتب المنزلة ابتداع من الفراغ، أم هي تجميع وتركيز وتوكيد وتكرار وإلحاح وطرق دائم عنيف على الباب القديم الذي كان موجوداً بالأيدي القديمة التي كانت موجودة؟

هل الأديان والنبوات والكتب المقدسة إلا قراءة للناس على أنفسهم، وإلا تعليمهم ما في أنفسهم وتعليمهم لأنفسهم؟ أليست هي ما كان، مزعوماً بصراخ إنه ما لم يكن؟ أليس النبـي هو الذي يعلم الناس ببكاء وعذاب وتطلع إلى النجوم ما تعلم منهم؟ أليس الفرق بين النبـي وجماهيره فرقاً في الأسلوب لا في المستوى؟ أليس مستوى النبـي هو مستوى السوق قد جاء صارخاً وباكياً وحزيناً وضارعاً وملحاً ومتجمعاً ومتكرراً؟

أليس النبي هو الذي يحدث الناس عن أحزانهم وتفاهاتهم واحتلاماتهم التي سمعهم يتحدثون عنها، والتي تعلمتها ذاته وأعضاؤه من أعضاء الناس ومن ذواتهم، لأن ذاته وأعضاءه ليست إلا ابتكار ذواتهم وأعضائهم، ولأن أحزانه وتفاهاته واحتلاماته ليست إلا تلقين وتوزيع أحزانهم وتفاهاتهم واحتلاماتهم؟ أليس النبي إنساناً تتجمع فيه الجماهير بأسلوب عنيف: تتجمع فيه أخلاق الجماهير وعواطفها وضياعها وحيرتها وصراخها ولغاتها النفسية والفكرية والتعبيرية؟ أليس هو الجماهير بأسلوب أشمل وأعنف؟

إن كان النبي هو الذي يعلم الناس فمن يعلمه هو، وإن كان يتعلم من الناس فمن يعلم الناس؟ أليس معلم النبي ومعلم الناس هو معلماً واحداً؟ أليس معلم الحشرات، معلم قادتها وإتباعها أو صغارها وكبارها معلماً واحداً؟ أليس معلمنا الصلاة والحب هو معلمنا السباب والبغض؟

ولكن هل النبوة تعليم أم جوع؟ أليست جوعاً قد تحول إلى تعليم وإلى تعاليم، قد تحول إلى نبوة؟ هل النبي يعرف تعاليم أكثر أم يعاني آلاماً وأحاسيس وظروفاً أقسى، ويعبر بأسلوب أكثر بكاء وإذلالاً للذكاء والكبرياء؟

هل الأنبياء هم الذين يعرفون أكثر أم هم الذين يعيشون في السوق ويطاردونها ويصرخون فيها أكثر وأقوى؟

* * *

هل عرفت أو تصورت أيها الصديق ما هي أخلاق الملائكة التي أردت أن تمجدني بها؟ هل فكرت فيها؟ هل قرأت عنها؟ هل جربتها، هل رأيتها؟ هل رأيت من رآها أو من جربها؟ هل عرفت أخلاقهم، وبأية وسيلة عرفتها؟ هل حدثك عنها المحدثون؟ هل حدثوك عنها بعد أن جربوها، بعد أن زاروا الملائكة أو زارتهم الملائكة، وبعد أن تعاملوا معهم كل أساليب المعاملات

وتحت كل الظروف التي تمتحن الأخلاق والتي تقاسي منها الأخلاق.

ما عمل الملائكة وما أخلاقهم وما نياتهم؟ هل هم إنسانيون، هل هم أتقياء، هل هم أصدقاء؟

هل هم ديمقراطيون، هل هم ثوار وفدائيون ضد الطغاة والطغيان؟ هل هم أعوان للطغاة ومستشارون جيدون جداً لهم؟ هل لهم ضمائر وأحاسيس ترفض أو تغضب أو تقاوم؟ هل هم منطق أو تفكير يحاسب وينقد ويحتج أم هم آلات وأدوات كالأعاصير والزلازل والأوبئة والموت والخراب والقحط؟

هل الأدوات والآلات ـ في قبضة الطغيان وتحكمه ـ ذات أخلاق وتقوى؟ هل الزلازل والبراكين والأوبئة والقحط والموت والخراب نماذج للفضيلة والامتداح والتدين؟

أليس الملائكة زلازل وبراكين وخراباً وموتاً وقحطاً وأوبئة؟ أليسوا كائنات تنفذ الأوامر الأليمة الرهيبة في هذا الكون وفي الحياة وفي الناس ـ تنفذ الأوامر الشريرة بطاعة وتدين وإخلاص وحماس ضد الكون والحياة والناس، دون أن تعصي أو تقاوم أو تراجع أو تتألم أو تحزن أو تبكي أو تغضب أو تتخاطب مع ضمائرها أو مع أخلاقها؟

أليست أخلاق الملائكة وضمائرها هي أن تطيع الأوامر الكئيبة العدوانية: أوامر القتل والتعذيب والتشويه والتدمير والانتقام بلا ذنوب؟

. . . أن تطيع هذه الأوامر الموجهة إليها من أطغى وحشية في هذا الكون؟

هل طاعة الأوامر المتوحشة وإنفاذها فضيلة أو تقوى؟ إذن ما هي الرذيلة والفسوق والفجور؟

أليست كل تقوى الملائكة وصلواتهم وفضيلتهم وإيمانهم أن يشكروا الإله ويقدسوه وينزهوه كلما قتل أو فتك أو عذب أو أهان أو أفقر، أو فعل شيئاً رهيباً أليماً؟

. . . كلما عذب أو شوه أو مرض أو أذل أو أمات شيخاً أو طفلاً أو حيواناً بريئاً أو حشرة مؤمنة تمضي كل وقتها في تسبيح الإله والصلاة له وفي الثناء عليه وفي التحدث عن مجده وحبه ورحمته؟

أليس كل عمل الملائكة أن يقتلوا هذا، أو يمرضوا هذا، أو يفقروا هذا، أو يشوهوا هذا، أو يهزموا هذا، أو يذلوا هذا، أو يغرقوا هذا، أو يصيبوا هذا أو هذا، أو كل هؤلاء بالآفات والعاهات والتشوهات وبكل المظالم والأحزان والثكل واليتم والفقد؟

أليس كل عملهم أن يضلوا، ويفسدوا، ويكيدوا، وأن ينفذوا إلى العقول والضمائر والرغبات والشهوات وإلى الأعضاء والنيات ليضعوا فيها ويحببوا إليها كل ألوان وجنسيات الفساد والغواية والشرور؟

أليس كل عملهم أن يعدوا الجحيم وكل أدوات التعذيب والانتقام والعقاب للبشر البائسين، وأن يضربوا الحراسة عليهم في الجحيم لئلا يهربوا أو يخرجوا منها، وأن يضربوا الحراسة على الجحيم لئلا تنطفى أو تسرق أو تهدم أو تزال بقرار دولي أو بقرار صحي أو بثورة عالمية؟ أليس أفضل وأتقى أعمالهم أي أعمال الملائكة أن يحموا الجحيم من كل القرارات أو الثورات العالمية أو الكونية التي قد تغلقه أو تهدفمه أو تحوله إلى شى أفضل؟

أليس الملائكة هم صناع النار ومسعريها وسدنتها وحراسها وبوابيها وحجابها وجامعي الوقود لها؟ أليس الملائكة كائنات نارية: يشيدون النار، ويوقدونها، ويحرسونها، ويدلون عليها، ويدخلون فيها، ويتحدثون عنها، ويحرضون عليها، ويعيشونه بأخلاقهم ومشاعرهم ومنطقهم ومكانهم. دون أن يقاوموها أو يستفظعوها ويرفضوها أو يرفضوا العمل فيها أو يتهيبوا النظر إلى وجه من يعاقب بها؟

أليس عمل الملائكة أن يحرسوا ضمير الإله وأخلاقه وعقله وعواطفه

ودموعه لئلا تصاب بالرقة أو بالرحمة أو بالعطف ـ لئلا تستجيب أو تضعف أو تنهار أمام الآلام والويلات التي يعاني منها البشر في دار العقاب والانتقام التي أعدها وأعد كل ما فيها من فنون الشر والتشويه والغضب الملائكة أنفسهم؟ لقد كان أعظم ثناء صاغه الكتاب المنزل للملائكة قوله: «عليها ـ أي على النار ـ ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون». وهل يوجد هجاء أقسى من هذا الثناء؟ إنهم غلاظ شداد في طاعتهم لطاغيتهم.

أليس كل عمل الملائكة أن يحرضوا قسوة الإلة وغضبه وعذابه وقوته الباطشة على البشر المقهورين؟ إنهم هم قسوة الإله وغضبه وعذابه وبطشه. إنهم هم آلة ذلك وأجهزته وأدواته.

هل ألف الملائكة وفوداً أو مجالس أو مظاهرات أو ضرارابات أو أية تجمعات أو تحركات ليطالبوا الإله بأن يكون أرحم أو أعظم نخوة أو نبلاً أو عفواً أو تسامحاً أو ديمقراطية أو نقداً للذات أو مراجعة للذات؟ هل خالفوا الأوامر؟ هل طالبوا بإبطالها أو بتعديلها أو بتصحيحها؟

هل هربوا، هل مرضوا، هل انتحروا استفظاعاً أو رفضاً اشمئزازاً مما يؤمرون ويمارسون ويشاهدون ويعلمون؟ هل بكوا، هل صرخوا، هل تفجرت عيونهم، هل هابوا الرؤية هل عافوها؟

أليس الملائكة هم أبشع وأشهر جلادين لأشهر وأبشع طغيان في الكون؟

أليس الملائكة هم وحدهم القائمين على أجهزة المباحث والمخابرات والجاسوسية لهذا الطغيان الذي هو أبشع وأشهر طغيان في الكون ـ الذي هو طغيان أشهر وأبشع طاغية في الكون؟

بل أليس قيام الملائكة على هذه الأجهزة للمخابرات والمباحث

والجاسوسية هو كل عملهم، وكل قيامهم وصيامهم وكل تقواهم وإيمانهم؟

هل توجد عيون أو قلوب في قسوة عيون وقلوب الملائكة؟ هل توجد ممارسات في وحشية ممارسات الملائكة؟

ما هي الفروق بين أعوان الطغاة من البشر وبين الملائكة الذين هم أعوان أشهر وأبشع طغيان في الكون؟ هل يقبل أعوان أي طغيان في التاريخ أن يسأل عن الفروق بينهم وبين الملائكة الذين هم أعوان أشهر وأبشع طغيان في هذا الكون؟ هل من العدل أن تقام مقارنة بين الملائكة وبين أعوان أي طغيان؟

إن أعوان طغاة البشر يأخذون الثمن، ويحولون الثمن الذي يأخذونه إلى أساليب مختلفة من الاستمتاع واللذات والمسرات والأشياء الأخرى الكثيرة القوية الإغراء والإغواء والتحريض، الكثيرة العشاق والمريدين. إنهم يأخذون ثمناً قد يغري وقد يلهب الشهية والرغبة، وقد يرى أن أكبر مما يعطون، وقد يرى أنه متكافىء مع ما يعطون، أو أنه دونه قليلاً. إنه مهما كان التقدير ثمن، إنه ثمن يختلف عليه المختلفون، ويقبل التساوم عليه المساومون، ويسقط تحت إغرائه وإغوائه الكثيرون، بل الكثيرون من الأقوياء والشامخين، ويصيح الآخرون الناجون ـ وهم ينظرون إليه ويتلمسون مواقعه وضرباته داخل حدود ضمائرهم وأخلاقهم: اللهم لا تدخلنا في تجربة مع ضمائرنا وأخلاقنا . . . اللهم لا تدخلنا في مثل هذه التجربة. اللهم لا تجعل ضمائرنا أو أخلاقنا تجرب نفسها على نفسها . . .

. . . اللهم لا تضعنا في خيار بين أن نكون هذا أو هذا ـ بين أن نكون أعواناً للطغيان الرهيب لنأخذ الثمن والأمان منه، وبين أن نعصي هذا الطغيان لنتلقى أخطاره وغضبه.

. . . اللهم احمنا بالعجز لا بالفضيلة، اللهم اعصمنا بقبضتك لا بخشيتك أو محبتك.

. . . اللهم اجعلنا رافضين لأننا عاجزون، لا لأننا عاصون، لا لأننا رافضون.

. . . اللهم احمنا مما لا تريد بجيوشك لا بأنبيائك، بقوة جيوشك لا بتعاليم أنبيائك.

. . . اللهم لا تجعلنا نجرب ضمائرنا أو أخلاقنا على ضمائرنا وأخلاقنا.

إن أفضل الأخلاق والضمائر هي التي لم توضع في مثل هذه التجربة ـ هي التي لم توضع في خيار بين أن تكون هذا أو نقيضه. إن أفضل الضمائر والأخلاق هي التي لم تجد نفسها في موقف المساومة مع الشيء ونقيضه. إن مواقف المساومة وظروفها هي دائماً هزيمة للضمير والأخلاق، أو تعذيب وإحراج للضمير والأخلاق. إن الإله الذي يضع عباده وأعوانه في ظروف ومواقف المساومة والخيار هو إله يدعو إلى أن يكون معصياً.

هل كان محتوماً أن تكون الشمس هي الشمس، أو الزهرة هي الزهرة لو كانت مخيرة بين أن تكون هي ذاتها وبين ألا تكون. إن مواقفنا مثل كينوناتنا، إنها ليست خياراً بين الشيء ونقيضه.

إن أي موقف وأي شيء لم يكن كما كان تحت الخيار بين الشيء ونقيضه. حتى الإله لم يكن ذاته كما كأنها بالخيار.

ولكن ما هو الثمن أو الأجر الذي يأخذه الملائكة لكونهم أعواناً لأشهر وأبشع طغيان في هذا الكون؟ هل يأخذون ثمناً أو أجراً؟ أليس الثمن هو الثمن؟ أليس الأجر الذي يأخذه الملائكة هو نفس العمل، هو أن يستمروا في العمل الذي أجره هو العمل، هو الاستمرار في العمل؟

أليس الملائكة يمارسون التنفيذ للطغيان والوحشية ليكون كل أجرهم الاستمرار في تنفيذ المزيد من الوحشية والطغيان.

هل يوجد عمل أجره ليس شيئاً سوى تكراره والاستمرار فيه؟ هل يوجد من يعملون ليكون أجرهم أن يستمروا يعملون؟ أليس هؤلاء هم الملائكة وحدهم؟

هل يوجد من يعملون أعواناً للطغيان دون ثمن؟ هل يوجد من يشتهون معاونة الطغيان اشتهاء لا ثمن له سوى الاشتهاء؟

أليس كل الثمن الذي يقبضه الملائكة أجراً لكونهم أعواناً لأشهر وأبشع طغيان في الكون هو أن يستمروا يعملون أعواناً لهذا الطغيان الذي هو طغيان أشهر وأبشع طاغية في هذا الكون؟ لعل بعض أعوان الطغاة يبكون أو يرثون أو يقاسون من عملهم. أما الملائكة فيمارسون عملهم بشهوة ونشوة وتسبيح وهتاف.

إنهم يمارسون عملهم الفظيع هذا بلا إغراء أو تعويض، إنهم يمارسون الفظاعة لنفس الفظاعة. إنهم يقتلون ويشوهون ويمرضون ويعذبون لكي يستمروا يقتلون ويشوهون ويمرضون ويعذبون. إن الملائكة يمارسون وظيفة الجلادين لأنهم عاشقون لا لأنهم خائفون أو مدفوع لهم الأجر، إنهم عاشقون لا أنانيون.

إذن هل يوجد في أعوان الطغاة من يشبههم؟ هل يقبل أعوان أي طغيان أن يكونوا ملائكة، أن يكونوا أشباهاً للملائكة أو أن تكون مستوياتهم الأخلاقية أو النفسية أو الفكرية، أو حظوظهم مثل مستويات الملائكة أو مثل حظوظهم؟ هل يوجد أتعس عملاً وحظوظاً من الملائكة؟

هل تقبل أن تكون ملاكاً لو إنك حدقت في أعمال الملائكة وفي أخلاقهم وفي حظوظهم؟

كم هو شيء فظيع أن يؤدي الكائن الحي الشاعر المفكر الذي يملك إحساساً ورؤية، والذي يأمر وينهي ويطيع ـ كم هو شيء فظيع أن يؤدي هذا

الكائن عمله بالأسلوب الذي تؤدي به البراكين والزلازل والأوبئة والقحط والعاهات والموت والآفات عملها؟

أليس الملائكة هم الكائنات الحية الشاعرة التي تملك الرؤية والإحساس والتفكير والعقل، والتي تؤمر وتنهي وتطيع، ومع هذا تمارس أعمالها بالأسلوب الذي تمارس به البراكين والزلازل والقحط والموت والأمراض والآفات والعاهات أعمالها؟ بل أليست هذه هي الأعمال الرسمية والدينية للملائكة بل وللآلهة؟ أليست هذه الأعمال والممارسات هي أتقى صلوات الملائكة وأذكى تخطيطات الآلهة؟

إذن هل يوجد أردأ وجوداً أو أخلاقاً أو حظوظاً من الملائكة؟ وإذن هل يوجد من يقبلون أن يكونوا ملائكة أو أن يكونوا في مستويات الملائكة، أو أن تكن لهم أخلاقهم أو حظوظهم؟

إذن هل الملائكة كائنات تستحق الغضب والعقاب والكره، أم هم كائنات تستحق الرثاء والإشفاق والتعزية؟ إنه لا عزاء للملائكة في حظوظهم وفي بشاعة ممارساتهم إلا الآلهة، وإنه لا عزاء للآلهة في حظوظها وفي بشاعة ممارساتها إلا الملائكة. إن الآلهة والملائكة ليتنافسون في رداءة الحظوظ والأعمال والأخلاق.

... ما هو الشيء الطيب أو الجميل أو الذكي أو الحر أو الأخلاقي أو الشجاع أو السعيد في حياة الملائكة أو في عواطفهم أو في قلوبهم أو في عقولهم أو في سلوكهم أو في ضمائرهم أو في تاريخهم، أو حتى في عيونهم ونظراتهم؟

إن أقسى وأفجر جلاد لأقسى وأفجر طاغية لهو أكثر «ملائكية» من الملائكة، وإنه لأقل إبليسية أو شيطانية من الملائكة. إن الملائكة يصنعون الآلام والشرور ويوقعونها بالإنسان، أما الشيطان فإنه يدعوه ـ أي يدعو الإنسان ـ فقط إلى ذلك دون أن يوقعه به. ولعل هذا الفرق هو الذي جعل

الملائكة أقرب إلى الله من الشيطان.

. . . أي خلق في الملائكة، أو أي موقف لهم يمكن أن يتمناه أي كائن لنفسه، أو يمكن أن يسعد أو يفخر أي كائن بأنه خلقه أو موقفه؟ أي شيء فيهم يمكن أن تتمناه أنت لنفسك أو أتمناه أنا لنفسي؟ أي شيء فيهم لا ترفض أنت أن تكونه أو يكونك، أو لا أرفض أنا أن أكونه أو يكونني؟

أي شيء، أي شيء في الملائكة؟ أي شيء فيهم يمكن أن يصبح امتداحاً أو مجداً أو أمنية لأي كائن؟ أي شيء فيهم لا يعد أقسى وأقصى أساليب ومستويات العار والوحشية والدمامة؟ أي طاغية لا يتمنى أن يكون له أعوان ومنفذون مثل الملائكة؟ بل أي طاغية يتحمل طغيانه أن يكون له منفذون وأعوان مثلهم؟

إن أردأ كائن لن يقبل أن يكون رديئاً كأنبل ملاك.

إن التاريخ في كل مستوياته لم يعرف طاغية كان له أعوان يملكون من الرداءة ومن القدرة على تنفيذها مثل الملائكة.

. . . إنه ليس في الكون ولا في العالم من يحابـي القوة واقلسوة ويطيعهما للبطش بالضعفاء والمظلومين مثل الملائكة. إنه ليس في العالم أو الكون عميل للقوة والقسوة الباطشتين المتوحشتين، أو منفذ لهما، أو مبارك لهما، أو معين عليهما، أو مشاهد لهما، أو شهيد عليهما، أو متبلد أمامهما، كالملائكة. إنه لن يوجد في البشر من يستطيع أن يتعلم من الملائكة كل قدرتهم على الإخلاص والطاعة والولاء والحب في تنفيذهم لأوامر وشهوات القوة والقسوة ضد الضعفاء والمقهورين المظلومين.

حتماً أنت لم تقصد هجائي أو الإساءة إليّ حينما وصفتني بالملاك. لهذا أنا عاذر بل وأحياناً شاكر. ولكن عذري وشكري لن يمنعاني من محاولة التفسير لهذه القضية بهذا الصدق الصادم الأليم، وبهذه الجسارة التي قد تعد

أسلوباً غير مألوف من الوقاحة أو من الجنون.

كيف أجمع البشر كل البشر في كل تاريخهم على هذه الغفلة الكبرى، على الاقتناع بأن الملائكة هم كل التفاسير وكل النماذج لكل الأخلاق العظيمة والمعلمة والمطلوبة والمطموح إليها؟

إن أحداً في كل التاريخ - تاريخ الآلهة والملائكة والسماء والمؤمنين - لم يفطن إلى هذا الوهم العجيب في تصور أخلاق الملائكة، وفي افتراض أخلاقهم هي النموذج الأسمى لأسمى الكائنات أخلاقاً. إن البشر قد يعجزون عن رؤية أكثر الأشياء تجريحاً للعيون.

إنه لا مثيل للإنسان في العجز عن الرؤية وفي القدرة على الرؤية، في التقبل وفي الرفض.

لقد ظل البشر يحابون الملائكة في تصورهم لمزاياهم بالأسلوب الذي ظلوا به يحابون الآلهة. لقد ظل البشر عاجزين عن امتلاك أي مستوى من مستويات النقد لسكان السماء، لكل سكان السماء. لقد كان سكان السماء دائماً عدواناً باهظاً على ذكاء الإنسان وتفكيره وتصوره، بقدر ما كانوا عدواناً على وجوده وحياته وأخلاقه، وعلى جسده أيضاً.

وهل يوجد أو وجد مثل سكان السماء في عدوانيتهم وفي براءتهم؟ هل عرف مثلهم معتدين على الإنسان وحامين له من العدوان؟ هل جاء مثلهم مهاجمين ومدافعين، موجدين ومفقودين؟

والآن هل تقبل أن تكون رديئاً أو وحشاً أو جلاداً أو عميلاً للطغيان الرهيب كالملائكة؟

هل تستطيع أن تمارس من البذاءة والذم والهجاء ما يجعلك تجرؤ على أن تصف أي كائن بأنه ملاك مهما كان رديئاً أو وحشاً أو جلاداً أو عميلاً للطغيان والقبح؟

. . . الآن هل تقبل أو تجرؤ على ذلك؟

. . . الآن، هل يقبل أي إنسان مهما كانت رداءته وذنوبه أن يمدح بأنه ملاك، أو بأن يهجى؟

. . . الآن هل يجرؤ الإله على أن يبقي على الملائكة أعواناً وجنوداً ومستشارين له؟

* * *

ثم ماذا أيها الصديق؟ لقد أخذتني إلى رحلة بعيدة، إلى رحلة قد أصبحت بعيدة جداً في تاريخي وفي خطواتي مهما ظلت قوية، قوية في ذكرياتي وفي أحاسيسي. لقد رجعت بي إلى ماض بعيد بعيد جداً. إنه بعيد، بعيد مهما ظل قريباً، قريباً.

لقد أخذتني إلى رحلة كنت أظن أنك تحسبني قد أصبحت مبتوتاً عنها ومفارقاً لها بلا عزاء أو ذكرى أو معاودة. لقد رجعت بي إلى تاريخ قديم، قديم، كان قوياً، قوياً جداً في حياتي. لقد رجعت بي إلى ذكرى كانت حياة، كانت حياة زاخرة بالانفعالات الزاهرة بالرهبة والرهبانية وبالضياع الرهيب. أجل، لقد رجعت بي دون أن تسأل أو تستأذن، وحتى ترفق. . .

لقد رجعت بي أيها الصديق إلى عالم لم يكن له مثيل في رهبته وفي وفي قوته، ولم يكن له كذلك مثيل في احتراقه وفي جنونه وفي عذابه وفي كبريائه، كما لم يكن له مثيل في تفاهته ولا في ضياعه ولا في عقمه. إلى عالم لم يكن له مثيل له في صدقه ولا مثيل له في كذبه، ولا مثيل له في حبه ولا مثيل له في عدوانه. . . إلى عالم كان هو كل شيء، وكان ليس شيئاً، كا يهبني كل شيء دون أن يملك هو شيئاً.

إلى عالم كان يعلمني كل شيء بل صدق وحماس وتعذيب وروعة دون أن يجعلني أعرف شيئاً ودون أن يعرف هو شيئاً. . . إلى عالم كان يفترسني

بكل أدوات وأساليب الافتراس والعدوان، وكان يتراءى لي كأجمل وأضخم الآمال التي تغفر كل افتراس وعدوان، بل التي تحول كل افتراس وعدوان إلى ابتسامات توزعها علي وتحييني بها كل أدوات وأساليب الافتراس والعدوان ـ يوزعها عليّ ويحييني بها كل شيء حتى كل أدوات الافتراس والعدوان، حتى كل أساليبهما كانت تحييني بهذه الابتسامات وكانت توزعها عليّ، أواه. هل كان ذلك الماضي سعيداً أو كان شقياً؟ هل كان شقياً سعيداً وسعيداً شقياً؟

ولكن ما هي الحدود بين الشقاء والسعادة؟ وهل توجد حدود بينهما؟ من وضعها، ومن يعرفها؟

لقد رجعت بـي بلا شوق أو نشوة ولكن بانبهار. لقد رجعت بـي إلى تاريخ كان عاصفاً، عاصفاً، ولكنه لم يكن مجيداً أو عظيماً أو عزيزاً، . لقد كان تاريخاً فيه كل المعاناة دون أن يكون فيه شيء من الإبداع. كان تاريخاً فيه كل معاني الرهبة دون أن يكون فيه شيء من معاني الروعة.

لقد رجعت بـي أيها الصديق إلى تاريخ كنت أعيشه هناك، بعيداً، بعيداً. كنت أعيشه مع الآلهة، في السماء، في مجاهل وغابات السماء، مع الأنبياء، مع الآيات والأحاديث، مع تفاسير الآيات والأحاديث، بين تهاويل وأهوال الجنة والجحيم، بين صورهما وتصوراتهما وأوصافهما، بين من يعيشون فيهما. وهل جربت أن تعيش هناك، هل جربت؟ إني أشفق عليك أن تكون قد جربت ذلك.

لقد رجعت بـي إلى تاريخ كنت أعيشه هناك هناك. بعيداً، بعيداً بكل الأهوال والتهاويل كنت أعيشه بكل الصدق والتقوى. وهل جربت أهوال الصدق والتقوى؟ هل جربت عذاب الإيمان الصادق؟

هل كنت تعني شيئاً إذ فعلت بـي ذلك، هل كنت تدبر؟ هل كنت تنوي تعذيبي؟ هل كنت تنوي أن تثير في معنى من معاني السرور؟ هل كنت تقسو

أم تأسو أم تمزح أم تمارس نفسك بلا تدبير أو تفسير أو منطق؟ هل كنت تعرف ما تصنع بـي حينما ارتحلت بـي هذه الرحلة في أعمال العذاب الرهيب المهيب، بين كآبة الآلهة وكآبة الأنبياء والقديسين، وبين شتائم وتهديدات الآيات والأحاديث، ولين أهوال وتهاويل الجنة والجحيم؟هل كنت تعرف ماذا تصنع أو تنويه؟

إنك تسألني عن تفسير قصة دينية، عن تفسير لقصة قد قصها الكتاب المقدس.

تقول إن القرآن قد حكى في سورة الكهف إن نبـي الله موسى قد اصطحب في رحلة دينية روحية غيبية عجيبة غامضة جداً اصطحب رجلاً غامضاً غيبياً قد امتدحه امتداحاً قوياً. وقد انطلقا موسى وذلك الرجل الغامض الغيبـي في رحلتهما الدينية الغيبية الروحية العجيبة الغامضة بعد أن أخذ ذلك الرجل على موسى شروطاً مسكتة لحرية عقله وتفكيره ولسانه حتى الأنبياء يقبلون أن تفرض شروط على حرياتهم، على حريات تفكيرهم ومشاعرهم وعلى حريات الكلمة فيهم. حتى الأنبياء يقبلون أن يفقدوا كل حرية ويفاوضون على فقدها. وفي بعض أشواط رحلتهما هذه وجدا سفينة تعمل في البحر. ولم يذكر أي بحر هذا البحر. فأحدث ذلك الرجل الغيبـي في السفينة خرقاً. ولم يذكر بأية وسيلة أو آلة أحدث ذلك الخرق، ولا ماذا صنع أصحاب السفينة حينما فعل ذلك بسفينتهم. وهل رأوه. وهل دبر ما فعل بالاتفاق معهم.

وقد ركبا السفينة بعد ذلك. وقد كان استغراب موسى واستنكاره أقوى من الشروط التي قد وافق عليها ووقعها بإملاء ذلك الرجل الغامض الذي اصطحب وكانت هذه الشروط أو كان منها ألا يسأل عن أي شيء يصنه ذلك الرجل مهما كان قبحه أو ظلمه أو جنونه أو سخفه. حتى الأنبياء يوقعون على فقد حرياتهم.

لقد قال موسى للرجل ـ ناسياً أو رافضاً الشروط المأخوذة عليه ـ كيف فعلت؟ لقد فعلت شيئاً منكراً. إنك تريد إغراق السفينة وأهلها لقد قصدت ذلك. إنك كائن لا يمكن فهمه ولا تفسيره ولا الاطمئنان إليه.

فذهب ذلك الرجل يفسر لموسى ما حدث. وكأنه كان يريد أن يظهر تفوقه ومواهبه وأسراره الخارقة الرهيبة. كأنه كان يريد أن يثبت استعلاءه وانتصاره على موسى. كأنه كان يقصد أن يمجد نفسه لا أن يعلم موسى ما لم يعلم. ولكن كيف ينكر النبي موسى على ذلك الرجل أن يفعل ما فعل وهو أي موسى لا ينكر على الإله أن يفعل شيئاً مما يفعل؟ أليس من يغفر للإله أفعاله لا بد أن يغفر لكل أحد كل شيء؟ إنه لا مثيل لغباء من يغفر للإله ولا يغفر للإنسان.

قال إن السفينة لقوم من المساكين يعملون في البحر، وإن وراءهم أو أمامهم ملكاً ظالماً لصاً طاغية، وإنه يغتصب كل سفينة حتى مثل هذه السفينة التي يملكها ويعمل عليها مثل هؤلاء المساكين بمثل هذا الأسلوب المتواضع من العمل. وقد دبرت لحماية هذه السفينة من الاغتصاب الذي كان ينتظرها، فكان هذا التدبير أن أحدثت فيها خرقاً. لقد خرقتها لأنقذها.

ولم يذكر هنا ما هي العقدة الفنية أو الفكرية أو السلوكية العجيبة التي تجعل أحداث خرق في السفينة يتحول إلى حماية لها من اغتصاب ملك لص يغتصب كل السفن. إن كان خرق السفينة يعني إعدامها أو إغراقها أو تعجيزها عن العمل فهل في هذا أي أسلوب من أساليب الانقاذ للسفينة أو لأصحابها المساكين الذين كان يراد إنقاذهم؟ أليس هذا يساوي إغراق السفينة خوفاً عليها من الغرق، أو إعدام المال أو الأثاث خوفاً عليه من اللصوص، أو قتل المريض خوفاً عليه من الموت؟

أما إذا لم يكن خرق السفينة يعني هذا، إذا لم يكن يعني غرقها ولا

موتها ولا عجزها عن العمل فكيف يكون في خرقها إنقاذ لها من الملك المغتصب؟ فأية عقدة روحية سماوية دينية في هذه القضية؟ وهل يمكن أن تفهم العقد الفنية أو الفكرية أو السلوكية في تفكير الإلهة أو في تأليفها أو في تصرفها، أو في تأليف أو تفكير أو في تصرف الرجال الغيبيين؟

ثم استمرا أي النبي موسى وذلك الرجل الغامض منطلقين في رحلتهما الدينية الروحية العجيبة الغامضة، فوجدا في طريقهما غلاماً يلعب مع غلمان في مثل سنه، فهوى عليه ذلك الرجل الغيبي فقتله. فكان ذعر موسى واشمئزازه وتعجبه بلا حدود. إنه لن يستطيع أن يسكت أو أن يلتزم بالشروط التي وقعها على نفسه، أي التي وقعها على عقله ومشاعره وأخلاقه وعلى عينيه، بألا يرى ما يحدثه، وبألا يفكر فيه، وبألا يشمئز منه أو أن ينكره، بل أو أن يتعجب منه.

حتى الأنبياء يفاوضون على فقد حرياتهم ويوقعون على فقدها وعلى شروط فقدها... حتى الأنبياء يفقدون حرياتهم. لقد رأى موسى جريمة قتل متعمدة لا يمكن الدفاع أو الاعتذار عنها، ولا يمكن تفسيرها بغير القتل المتوحش المتعمد. بل إنه أكثر أساليب القتل المتعمد وحشية ونذالة وجنوناً أنه قتل بدون أي حافز أو سبب من حوافز أو أسباب القتل. إنه لو لم يقبل أن يوجد من يقتل بدون أن تحركه حوافز وأهداف القتل. ولكنه يعلم أن الله يقتل ويقتل دائماً ويقتل كل الأحياء دون أن يكون محكوماً بأي حافز أو هدف أو سبب من حوافز أو أسباب أو أهداف القتل. إنه لو وجد كل من يقتلون مسوغاً لأن يقتلوا لبقي قاتل واحد لا يجد هذا المسوغ للقتل ولكان هذا الواحد هو الله.

إن كل الناس يغفرون للإله ما لا يغفرون لأنفسهم أو لأي كائن غيره، حتى الأنبياء، إنهم يغفرون للإله ويتقبلون منه ويفسرون له ما لا يستطيعون أن يغفروه أو يتقبلوه أو يفسروه لأحد سواه.

لقد عجز النبـي موسى أن يغفر قتلة واحدة لذلك الرجل الغيبـي الغامض الذي وقع عليه الشروط مع أنه أي النبـي موسى يغفر للإله أن يقتل كل أحد وأن يفعل كل الآلام والدمامات والذنوب المشهودة.

إن كل الناس حتى الأنبياء يفرضون على أنفسهم وعلى كل أحد من الأخلاق والذكاء والوقار والعدل والاحترام للنفس ما لا يرفضون على الإله. إنهم يغفرون للآلهة ويعقلون منها ما لا يغفرون أو يعقلون من سواها. إنهم بهذا يقصدون تمجيد الآلهة والارتفاع بمستوياتها الأخلاقية والمنطقية والنفسية. إن تمجيد الآلهة لا يكون إلا بأن تكون معفاة من جميع الشروط والالتزامات الفكرية والأخلاقية والفنية. إن الثناء عليها لا يكون إلا باعتقادها بلا أي مستوى. لقد رفض موسى أن يغفر لذلك الرجل قتله لذلك الغلام، ورفض الالتزام بشروط الصمت والتسليم التي وقعها على منطقه وعلى أخلاقه وعلى عواطفه وعلى عينيه. لقد أنكر عليه أن يقتل هذه النفس البريئة. عجباً! كيف لم يقل له ذلك الرجل القاتل: أتنكر علي أن أقتل نفساً واحدة وتتقبل أن يقتل الإله كل النفوس البريئة حتى نفسك ونفسي حتى نفوس جميع الأنبياء والقديسين؟

ولكن ذلك الرجل الغامض القاتل راح يدافع عن جريمته ويفسرها لموسى. قال في دفاعه وتفسيره: إن ذلك الغلام ابن لأبوين مؤمنين، وقد خشينا أن يرهقهما بطغيانه وكفره. لقد قتلته لذلك، وإني أريد أن يبدل الله أبويه به خيراً منه وأزكى.

ثم يقول أيها الصديق إنك لم تستطع أن تفهم، كما أنك لم تستطع أن تصمت.

تقول إن إصابة السفينة خيفة أن يأخذها ذلك الملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً تشبه أن يكون هناك وجه جميل لامرأة جميلة، وأن يكون هناك

رجل وحشي يريد اغتصابها والاعتداء عليها ـ أو أن يكون هناك رجل قوي يغتصب كل امرأة جميلة ليعتدي عليها، فيكون العلاج أنْ يشوه وجه تلك المرأة أو وجه كل امرأة جميلة، لكي يحميها وتشويهها من الاعتداء عليها. وقد يكون في منطق الإنسان أو في منطق الطبيعة أن الجمال هو المعتدي على من يعتدي عليه. وقد يرى هذا المنطق أن يعاقب الجمال لأنه جمال ـ أو أن يكون هناك رجل عبقري، وأن يكون هناك حاسدون وأعداء له يريدون قتله، أو يحتمل أن يقتلوه حسداً، أو أن يكون هناك من يحسدون ويعادون كل عبقري، فيكون العلاج لهذا الموقف أن يصاب ذلك العبقري، أو أن يصاب كل عبقري بما يجعله فاقداً عبقريته، لكيلا يعتدي عليه حساده وأعداؤه أو حساد وأعداء كل عبقري. وقد تكون العبقرية هي المسؤولة عن العدوان الذي يصيبها، قد تكون العبقرية هي المعتدية على من يعتدون عليها، قد تكون هي صانعة العدوان الذي يقع عليها.

ومع هذا هل يمكن أن يوجد من يعالج هذا أو هذا بمثل هذا الأسلوب؟ هل يمكن أن يصاب أحد بجنون يجعله يرى أو يتقبل أو يمارس مثل هذا العلاج في مثل هذه الحالات؟ هل يمكن أن تجن السماء لتبعث برجالها الروحانيين الغيبيين ليعالجوا الشرور والآلام بمثل هذا الذكاء؟ أليست الأرض حينئذ خليقة بأن تعلم السماء الذكاء وعبقرية السلوك؟ أليس حينئذ تعلم السماء من الأرض غباءها لتعيش وتضبط به سلوكها وأخلاقها، ليكون ذلك أفضل لها ـ أي للسماء ـ من أن تعيش وتمارس سلوكها وأخلاقها بذكائها هي، أو بذكاء الآلهة المقيمين فيها؟

نعم، أليس هذا هو الذي يحدث دائماً أي أن السماء هي التي تتعلم من الأرض كل ذكائها وكل أخلاقها؟

أليس العلاج الذي يجب أن تتعلمه السماء وسكانها من الأرض ومن أهلها ـ نعم، أليس في الحالة الأولى أن يقتل ذلك الرجل الذي يعتدي على

النساء الجميلات أو يعتقل أو يعاقب أو يصاب بعاهة تجعله عاجزاً أو يمنع من عدوانه بأية وسيلة من وسائل المنع ولو بالأسلوب الخارق الغيبي الذي يتصرف به ذلك الرجل القادر الغامض المرسل من السماء؟ أليس تشويه من يريد أن يعتدي ليكون عاجزاً عن الاعتداء أذكى منطقاً وأعدل سلوكاً من تشويه من يراد الاعتداء عليه لئلا يكون معتدى عليه؟ ولكن أليس في سلوك الإنسان والطبيعة ـ ولو أحياناً ـ أن يشوها الوجه الجميل بدل أن يعاقبا أو أكثر مما يعاقبان العدوان الذي يقع عليه؟

أليس العلاج في الحالة الثانية أن يعاقب أو يمنع أو يجز أولئك الحساد والأعداء الذين يحتمل أن يقتلوا ذلك العبقري أو أن يقتلوا كل عبقري بأي أسلوب من أساليب المنع والعقاب والتجيز، أو أن يجعلوا غير راغبين في جريمتهم ـ لا أن يجعل ذلك العبقري أو كل بقري يفقد عبقريته؟ ولكن أليس قتل العبقرية أو تعجيزها أو عقابها أو إرهابها أو محاولة جعلها مفقودة أو كالمفقودة أسلوباً تمارسه الطبيعة ولو أحياناً، ويمارسه البشر أكثر، يمارسونه كثيراً بدل أن يفعلوا ذلك بمن يعتدون عليها؟ أليس البشر أحياناً أو دائماً يعاقبون العبقرية أكثر مما يعاقبون أعداءها أو بدل معاقبتهم؟

أليس هذا هو العلاج البسيط القريب الذي لا يحتاج إلى ذكاء السماء ولا إلى خوارق وأسرار ومعجزات رجالها الغيبيين الروحانيين؟

أليس هذا هو العلاج الذي يجب أن تتعلمه السماء ويتعلمه سكان السماء الأذكياء، أن يتعلموه من الأرض ومن أهل الأرض الأغبياء جداً مهما علموا أي سكان الأرض نقيض ذلك أحياناً. . . إن ذلك الرجل الغيبي قادر أن يقتل أو يعاقب أو يمنع أو يهدد أو ينذر ذلك الملك السارق المغتصب ليجله عاجزاً أو غير راغب فيما يمارس أن ذلك الرجل كائن غيبي يتصرف بأسلوب غيبي، إنه كائن خارق مرسل من السماء ليفعل بأسلوب خارق. إنه يستطيع أن يمنع ذلك الملك بالأسلوب الخارق الذي يؤدي به أعماله. إنه

يستطيع أن يفعل ذلك بكل الأساليب المعروفة وغير المعرفة . . .

فلماذا عاقب السفينة وأصحابها المساكين بدل أن يعاقب ذلك الظالم؟ لماذا أساء إلى من قد يظلم بدل أن يحميه، وبدل أن يؤدب أو يمنع الظالم؟ هل العدل والذكاء أن يحبس المظلوم أو من يراد ظلمه أو من يمكن ظلمه، أم العدل والذكاء أن يحبس الظالم أو من يريد أن يكون ظالماً أو من يمكن أن يصبح ظالماً؟ لماذا لا تتعلم السماء وأهلها هذا الذكاء البسيط أو هذا السلوك البسيط من الأرض ومن أهلها؟ إن هذا هو ذكاء الأرض مهما كان سلوكها. إن أقل ما تطالب به السماء أن تتعلم من الأرض ذكاءها. إن السماء لم تستطع أن تكون ذكية السلوك، إن أقل الأشياء إذن أن تكون ذكية الذكاء أو ذكية المنطق.

لماذا لم يطلب هذا الرجل الغيبي السماوي من أصحاب السفينة إلا يسافروا إلى البلد الذي يحكمه ذلك الملك السارق؟ لماذا لم يخبرهم بقصة هذا الملك؟ أو لماذا لم يصب السفينة بشيء من سحره وأسراره ليجعلها غير مرئية أو غير مرغوب فيها بدل أن يصيبها بالعيب؟ كيف يحصنها بعاهة وهو يستطيع تحصينها بلا عاهة، بسر روحاني يمنحها البركة والتقوى والجمال والحماية والحظ الجيد؟

ثم تقول أيها الصديق: كيف؟ إن خرق السفينة لن يجعل ذلك الملك الذي يأخذ كل سفينة اغتصاباً يكف عن أخذها. إنه يأخذها لأنها سفينة تعمل لا لأنها سفينة غير مخروقة. وهل الذين يغتصبون السفن والأشياء يكفون عن اغتصابها إذا كان فيها عيب أو خرق؟ هل الأشياء أو الحياة تمارس بهذا الأسلوب أو تفهم بهذا الأسلوب؟ هل الناس مشترطون أو متأنقون أو متطهرون أو متكبرون في امتلاكهم أو في ممارساتهم إلى هذا المدى الجيد الذي يرفض ما أصابه خرق أو عيب؟

إن الذين يعفون عن أخذ السفينة أو يتكبرون على أخذها لو كان فيها

ثقب لم يكونوا لصوصاً، إن مثل هؤلاء لن يأخذوا شيئاً. إن في كل الأشياء كما في كل الناس عيوباً وخروقاً. إن من يرفض ما فيه أو من فيه خرق أو عيب فلن يقبل شيئاً ولا أحداً. إن من يرفض الأشياء المخروقة لم يوجد ولن يوجد. إنه لم يوجد ولن يوجد من لا يصابون بالخروق ومن لا يعيش الخروق وبالأشياء المصابة بالخروق.

إن العيوب والعاهات والتشوهات والذنوب في السفن وفي الأشياء وفي الحياة والناس أعظم جداً وأكبر جداً وأكثر جداً من الإصابة بالخروق والثقوب، فإذا كان أقل ما في الأشياء والسفن والحياة والناس - وهو الإصابة بالخرق - يجعل المصاب بذلك مرفوضاً ومردوداً، لا يغتصب ولا يراد ولا يقتني ولا يمارس فلن تجد من يقبل شيئاً أو من يسرق شيئاً أو من يمارس شيئاً أو من يقتني شيئاً.

إن اشتراط البراءة في الأشياء من كل العيوب والذنوب والخروق لم يوجد ولن يوجد.

إن جميع الناس المعاصرين لذلك الملك اللص العاجز جداً سوف يعرفون حينئذ بالتجربة أن لصهم هذا الطيب المتعفف جداً يكف عن اغتصاب الأشياء التي فيها عيب، أي عيب، حتى ولو كان هذا العيب خرقاً في السفينة، حتى ولو كان العيب خرقاً في السفينة لا يمنعها من أن تعمل. إنهم حينئذ سيجعلون لصهم هذا عاجزاً وراغباً عن أخذ أي شيء، إنهم حينئذ سيجعلون منه ملكاً عفيفاً نظيفاً تقياً، لا يأخذ أي شيء ولا يهم بأخذ شيء. إنهم حينئذ لا بد أن يحدثوا في كل أشيائهم وسفنهم العيوب والعاهات والخروق والذنوب لتكون معصومة من الأخذ، من ذلك الملك اللص البليد الشاذ المغفل جداً، أو المشترط لنفسه ولأشيائه شروطاً لا يشترطها كائن سواه.

ما أروعها قصة. قصة ملك لص يأخذ كل السفن غصباً حتى سفينة

هؤلاء المساكين ولكنه يعف عن أخذ السفينة التي بها خرق ولو مدبراً. وتقول أيها الصديق: إن عقلك قد رفض أن يتقبل أو أن يفهم أو أن يغفر هذا الذكاء السماوي وقد جاءت لهجتك وكأن فيها شيئاً غير قليل من إرادة التهكم بذكاء السماء.

ثم تقول أيها الصديق عن الحادثة الأخرى: إنه إذا كان جائزاً أو واجباً قتل الغلام لاحتمال أن يجيء شريراً أو كافراً أو عاقاً أو صانعاً للأذى أو للفجور فإن الواجب أو الجائز حينئذ قتل جميع الغلمان، بل قتل جميع الكائنات وتدمير جميع الأشياء، حتى المصانع والبيوت والمدن وكل شيء. لأن كل الأشياء وكل الناس يحملون في وجودهم احتمالات مضادة، احتمالات رديئة أو مؤذية أو غير سارة، احتمالات أحياناً قاتلة.

إن ذلك الرجل الروحاني الغامض القادم من السماء ليعلم أهل الأرض ألغاز السماء وفنون عبقرياتها يقول إنه قتل ذلك الغلام لأنه خشي على أبويه من كفره وطغيانه. إنه يقتل غلاماً بريئاً لأنه فيما يقول يخشى أن يكون مؤذياً أو رديئاً أو كافراً. أنه يقتل بالخشية، وأن الخشية من الكفر أو الضلال أو الفجور أو الطغيان. توجب القتل أو تجعله شيئاً جائزاً أو طيباً أو عملاً صالحاً.

اسمع إذن. إن لك أن تقتل كل أحد وأن تدمر كل شيء لأنك قد تخشى أن يكون كل أحد كافراً أو مؤذياً أو رديئاً أو طاغية، ولأنك قد تخشى أن يكون كل شيء ضاراً أو متعباً أو غير ملائم أو غير عادل. اسمع: إن لك أن تقتل كل أحد وأن تدمر كل شيء كلما خشيت منه الضرر والفساد.

إن لكل أحد أن يقتلك لأنه قد يخشى أن تكون كافراً أو فاسداً أو طاغية أو رديئاً. إن لكل إنسان أن يقتل كل إنسان، أن يقتل أي إنسان، لأن كل إنسان قد يظن أو يخشى أن أي إنسان آخر، أو أن كل إنسان آخر قد يكفر أو يفسد أو يطغى أو يكون أي شيء رديء.

إن لكل الناس إذن أن يقتلوا كل الناس لأن كل الناس قد يخشون من كل الناس، أو يخشون على كل الناس أن يكفروا أو يضلوا أو يطغوا، أو يكونوا أي أسلوب من أساليب الفساد. إذن فليكن كل أحد قاتلاً أو مقتولاً قاتلاً:

لقد قتل ذلك الرجل الغامض الغلام لأنه خشي منه إذن لقد كان لذلك الغلام أن يقتل ذلك الرجل بنفس المنطق والتفسير... اسمع. إنك حينما تخشى أن يصبح أي غلام كافراً أو ضالاً أو ظالماً أو منحرفاً أو مؤذياً لأبويه أو للناس فإن لك أو فإن واجباً عليك أن تقتله. إذن ما أقواك وأتقاك. إنك تقتل بالخشية. ما أقوى إذن خشيتك، ما أتقاها وأغلاها.

إذن كم أنت مخيف لنا ولغلماننا، وكم نحن مخيفون لك ولغلمانك، متى تشعر أو نشعر بأننا يجب أن نقتل؟

اسمع. إن هذه هي أوامر وإرادة السماء التي يبلغها وينفذها جنودها القادمون ليعلموا الأنبياء ذكاء السماء ـ التي يبلغها وينفذها جنود السماء الذين يجيئون لكي يصبحوا أنبياء للأنبياء. لقد كان ذلك الرجل الغامض نبياً للأنبياء. وأيهم أذكى أو أتقى أو أقوى تعاليم ونبوات: الأنبياء أم أنبياء الأنبياء؟ أجل، إن للأنبياء أنبياء. أجل، إن لكل نبـي عديداً من الأنبياء.

ثم تقول أيها الصديق: إن كان هذا الرجل الغامض إنما يطيع أوامر الله ومشيئته في قتله لهذا الغلام ـ وهذا هو المفروض والمسلم به ـ فالتفسير إذن لهذا أن الله يأمر بقتل الغلام ويريد موته لأنه أي الغلام سيكون بالقدر شريراً وهو يرفض أن يعيش الأشرار.

إذن لماذا خلقه الله؟ لماذا إذن يدبر خلقه إن كان ذلك كذلك؟

إن كان الله يدبر ويريد قتل من سيكون كافراً ويأمر بقتله ويرفض أن يحيا فلماذا إذن خلقه ودبر خلقه؟

إن الله يعلم أن الغلام سيكون شراً على أبويه وعلى الله نفسه لأنه سيكون كافراً طاغياً، والله يرفض له أن يعيش لأن لو عاش لصنع هذا الشر والكفر، والله يرفض أن يعيش من يصنعون الشر والكفر، لهذا كان محتوماً قتله، كان محتوماً أو مطلوباً أن يدبر الله له وأن يكلف من يقتله.

إذن أليس الأسلوب الأذكى والأفضل والأكثر رحمة ونحوة وشهامة ألا يخلقه؟ كيف لم تفطن السماء بكل ما فيها ومن فيها من ذكاء ورحمة وعلم وسكان وآلهة وملائكة إن هذا الأسلوب أي ألا يخلق هو الأسلوب الأذكى والأفضل والأنبل والأعقل والأقل تكاليف ونفقات ومخاطر؟ إنه ليس ذكاء ولا سلوكاً لأي عاقل بل ولا لأي كائن غير عاقل أن يشيد مصنعاً وهو يعلم أنه لا بد أن يتهدم بالناس وعلى الناس، ثم يذهب يهدمه قبل العمل فيه لأنه لا يريد له أن يتهدم بالناس أو على الناس.

إن المنطق، إن كل منطق حينئذ ألا يشيد ذلك المصنع لئلا يحتاج إلى هدمه وإلى تحمل ما في هدمه من انفاقات ومعاناة وسفه أليم. إن المنطق ألا يقيم ذلك المصنع، أو أن يجعله قوياً سوياً لا يتهدم على الناس. أما أن يقيمه معداً للانهدام على الناس ثم يهدمه قبل أن ينهدم أو لئلا ينهدم منطق أنبياء الأنبياء وحدهم.

إذا كانت إرادة الله أن يؤدي ذلك الغلام دوره فلماذا قتل؟ وإذا كانت إرادته ألا يؤدي دوره لأنه دور شرير فلماذا خلق؟ إذا كانت الإرادة أنْ يعمل ذلك المصنع فلماذا هدم؟ وإذا كانت الإرادة ألا يعمل فلماذا أقيم؟ يقيم المصنع الذي يعلم أنه لا بد أن يتهدم على من يعملون فيه قبل أن يعملوا ثم يهدمه بعد إقامته قبل أن يتهدم عليهم لأنه لا يريد ذلك. أهذا منطق إله وأنبياء وأنبياء الأنبياء.

إنه سؤال يسد على المنطق كل الطرق. إنه سؤال يجعل المنطق عاجزاً

عن أي أسلوب من أساليب التفسير أو التسويغ أو الدفاع. إنه سؤال يسقط كل احتمالات المقاومة والهرب على المنطق.

ثم تقول: إذا كانت مشيئة الله وأوامره المنفذة أن يقتل جميع الغلمان الذين سوف يصبحون كفراً أو طغياناً فإن المحتوم والواجب حينئذ ألا يعيش أي وليد محكوم عليه أو مقدر عليه أن يكون كفراً أو شراً. إن المعنى حينئذ لهذا ألا يوجد في الحياة أو في التاريخ أو في الغيب المقبل إنسان واحد شرير أو كافر أو ضال أو طاغية، لأن مشيئة الله وأوامره المنفذة أن يقتل جمي من يحملون في ذواتهم وأقدارهم احتمالات الكفر والشر والضلال والطغيان كما قتل ذلك الغلام.

وهل يمكن أن يكون هناك أي منطق أو حكمة أو تفسير لقتل هذا الغلام وحده اتقاء لاحتمالاته الشريرة دون جميع الغلمان الذين تعيش فيهم كل الاحتمالات المماثلة لاحتمالات ذلك الغلام، بل الذين تعيش فيهم احتمالات هي أخبث وأقسى وأشد هولاً ونذالة وجنوناً؟

إن التاريخ والحياة يعرفان بارتياع وبكل مشاعر الافتضاح والعار والإذلال أطول وأضخم مواكب الطغاة والكفرة والفاسدين والقتلة واللصوص والمجانين العالميين الذين صنعوا أبشع الحروب والحماقات والخراب والموات والطغيان والزندقات العالمية. إن تعاقب هؤلاء على أخلاق وضمير الحياة والتاريخ، وانتصارهم الخالد عليهما لم يبق لهما أي مستوى من الكرامة أو الشرف أو الشجاعة أو التقوى، بل أو الإيمان. أن تعاقب وتزاحم هؤلاء على ضمير التاريخ والحياة وعلى أخلاقهما يجعل التحدث بأي صوت أو لغة عن التقوى أو الايمان عن الشجاعة أو عن الرفض أو عن الشرف أو عن الكرامة أسلوباً مخيفاً ومرهقاً من أساليب الوقاحة. إنه لم يوجد في أي وقت أي حارس للتاريخ أو للحياة أو للإنسان من أي عار أو فجور أو نذالة أو زندقة لقد كان الإنسان في كل تاريخه وحياته بلا أية حراسة.

فلماذا لم يوجد، أو لماذا لا يوجد إله طيب غيور رحيم يغتال هؤلاء أو يبعث لهم من يغتالونهم وهم غلمان كما فعل هذا الإله الطيب الغيور الرحيم بهذا الغلام؟ لقد كان هؤلاء يوماً ما غلماناً، كانوا يوماً ما احتمالات، احتمالات شريرة، فلماذا لم يقتلوا حينما كانوا احتمالات، حينما كانوا غلماناً للأسباب التي قتل لها هذا الغلام؟ لماذا لم يكن الله طيباً ورحيماً وغيوراً إلا في تعامله مع هذا الغلام أو ضد هذا الغلام؟ لماذا لم يكن قاتلاً لأنه رحيم وغيور وطيب بهذا الأسلوب إلا لهذا الغلام؟ لماذا هذا الغلام وحده قد صنع للإله منطقاً جديداً وسلوكاً جديداً وأخلاقاً جديدة وصيغة جديدة ووقاراً جديداً؟ لماذا خلق له مذهباً جديداً يعامل به نفسه ويعامل به الأشياء حوله؟

لماذا كان الله غيوراً وتقياً وحارساً للإيمان والأخلاق والتقوى في معاملته لهذا الغلام وحده؟

ما هي العلاقات النفسية الخاصة بين الإله وبين هذا الغلام؟ لقد عامل الله هذا الغلام معاملة لم يعامل أحداً بمثلها، وحاسبه على احتمالاته المقبلة محاسبة لم يحاسب أحداً على احتمالاته المقبلة مثلها. فلماذا؟ إنه لا بد أن تكون هنالك علاقات خاصة غير مستعملة من قبل بين الله وبين هذا الغلام. فما هذه العلاقات، ولماذا هي؟ أو لا بد أن تكون هناك علاقات ممتازة وغير مجربة بين الإله وبين والدي هذا الغلام. فما هذه العلاقات، ولماذا؟

كم هم المؤمنون جداً في التاريخ، بل كم هم الأنبياء والقديسون في التاريخ، الذين ترك لهم أبناؤهم أو آباؤهم أو أزواجهم أو أقاربهم الأشرار والطغاة والزنادقة والفجرة جداً، ليرهقوهم ويشقوهم بالطغيان والفجور والزندقة والعقوق وبكل أنواع الفساد والضلال، دون أية محاولة لإنقاذ هؤلاء الأنبياء والقديسين والمؤمنين جداً من هؤلاء الأقارب الأشرار بقتلهم بالنية وبالأسلوب الذين قتل بهما ذلك الغلام، بل دون أي رثاء لهؤلاء الأنبياء

والقديسين والمؤمنين جداً. لماذا لم يرق قلب الإله لهؤلاء الأنبياء والقديسين كما رق قلبه لوالدي هذا الغلام؟ كيف تحول الإله إلى قاتل بل إلى مغتال ليحمي والدي هذا الغلام ولم يتحول إلى مثل ذلك ليحمي الأنبياء والقديسين؟

لماذا خصت أخلاق الإله هذين الأبوين بحمايتهما من ابنهما الشرير، من احتمالات ابنهما هذا؟ أو لماذا خصت غيرة الله هذا الاب وحده دون جميع الأبناء المماثلين بالغضب والعقاب والقتل؟ هل في هذه القضية محاباة لوالدي هذا الغلام وحدهما، أم فيها غيرة وغضب وأخلاقية وبغض أكثر وأشد من المعروف عن غيرة الإله وغضبه وأخلاقيته وبغضه ضد هذا الغلام؟.

هل في هذه القضية حب خرج بالإله عن وقاره، أم فيها حقد أفقد الإله إتزانه؟ إن هذه القضية قد خرجت بالإله عن كل تاريخه. هل الإله هنا محاب أم متحامل؟ هل هو محاب لهذين الوالدين، أم هو متحامل على ابنهما، أم هو محاب ومتحامل؟ هل في القضية تفسير آخر لا تمكن معرفته؟ هل نحن عاجزين أن نفهم أم أن الذين يجيئون إلينا ليعلمونا ذكاء السماء لا يقولون أو يفعلون شيئاً يمكن أن يفهم؟ وهل في الأشياء ما يفهم وما لا يفهم؟ أليست كلها منطقاً واحداً؟ إن الكتب المقدسة تذكر أنبياء عظاماً قد أشقاهم أبناؤهم أو آباؤهم أو زوجاتهم أو آخرون من أقاربهم بخياناتهم أو بعصيانهم أو بكفرهم العظيم. إن هؤلاء الأبناء والآباء والأزواج والأقارب لم يقتلوا وهم غلمان حماية لأبنائهم أو لآبائهم أو لأزواجهم أو لأفاربهم.

نعم، حتى الأنبياء والقديسون لم يحموا هذه الحماية التي خص بها هذا الولدان لهذا الغلام. فلماذا هذان الوالدان المؤمنان فقد دون كل العالم من المؤمنين، دون كل الأنبياء وكل القديسين؟ أو لماذا هذا الولد الشرير وحده دون كل الأشرار في كل العالم وفي كل التاريخ؟

لماذا لم يمارس الإله نبله ورحمته إلا من أجل هذين الأبوين؟ أو لماذا لم يمارس غضبه وغيرته وحمايته وانتقامه إلا مع هذا الغلام؟

لماذا هذان الأبواب فقط؟ أو لماذا هذا الغلام الابن فقط؟ أو لماذا هذان الأبوان لهذا الابن فقط؟ هل يمكن أن يوجد أي تفسير للإله هنا أو أي دفاع عنه؟

بل هل يمكن أن يوجد أي تفسير للإله أو أي دفاع عنه في أي موقف من مواقفه أو في أي خلق من أخلاقه؟

لماذا أيها الإله، أيها القدر، أيها الرجال الآتون من السماء، من عند الآلهة لتعلمونا ذكاء وأخلاق السماء والآلهة؟ لماذا لم توجد الحماية إلا لهذين الوالدين؟ لماذا لم تطلب الحماية إلا من هذا الغلام؟ لماذا أيها الإله، أيها القدر، أيها الرجال الآتون من فوق السماء؟

لماذا أيها المفكرون عن السماء، أيها المبلّغون للأرض ذكاء السماء؟

لماذا أيها المفكرون عن السماء تفضحون السماء، تفضحون ذكاء السماء، بكل هذه القسوة؟

لماذا أيها المبلغون عن السماء لا ترتفعون في ذكائكم إلى مستويات السماء؟

لماذا لا ترتفع السماء في ذكائها وأخلاقها إلى مستويات الأرض في ذكائها وأخلاقها؟

لماذا تظل الأرض دائماً أفضل ذكاء وأخلاقاً من السماء، وتظل الواضعة لأخلاق وذكاء السماء والمقياس لذكائها وأخلاقها والكاشفة عن أخطائها؟ أيها المفكرون عن السماء، أيها المبلغون عنها. لقد علمتمونا أن الإله قد منح الشيطان الخلود لكي يستطيع أن يفسد وأن يغوي وأن يشوه وأن

يهدي إلى الزندقة والضلال كل البشر في كل التاريخ.

لقد علمتمونا أيها المبلغون المفكرون عن السماء أن الله قد وهب الشيطان الخلود ووهبه كل احتمالات ومزايا القدرة على جعل الناس جميعاً، في كل أجيالهم زنادقة وفساقاً وطغاة ولصوصاً وملوثين.

لقد علمتمونا أيها المعلمون أن الشيطان لم يوهب الخلود إلا لكي يظل قدرة دائمة على أن يعلم الزندقة والفسوق والتلوث والطغيان والعقوق وإرهاق الآباء والأبناء والأزواج وكل الأقارب وكل الناس بكل الأحزان والأثام والشرور الكبرى العالمية الدائمة. لقد علمتمونا أنه قد أريد للشيطان أن يكون أضخم عبقرية في قدرته على أن يفسد ويغوي بلا حدود. لقد وضع الله كل عبقريته في عبقرية الشيطان ليكون إغواؤه بلا حدود.

لقد علمتمونا أن الحكمة في تخليد الشيطان في منطق الإله وإرادته هي محاولة تخليد الكفر والضلال والآثام وكل الرذائل والذنوب والعدوان على الآباء والأبناء والأزواج والأقارب وعلى كل البشر.

لقد علمتمونا أن الشيطان ليس إلا موظفاً عبقرياً كبيراً جداً، جداً عند الإله لكي يعلم الكفر والضلال والآلام والخبث تعليماً عالمياً أبدياً، ولقد علمتمونا أنه أكبر موظف عند الله، إنه أكبر من الملائكة والأنبياء وكل القديسين، وإن وظيفته تلك هي أعظم وأكبر وأقوى الوظائف في الأرض وفي السماء.

لقد علمتمونا أيها المفكرون المبلغون عن السماء كل هذا، فكيف تجيئون لتعلمونا قصة هذا الغلام؟ كيف تعلموننا قصة الشيطان وإن الله قد خلده لأنه يستطيع أن يحول كل البشر إلى كفرة وفساق وطغاة وملوثين، وإن الله قد وظفه لذلك، ثم تلموننا إن الله قد عبث برجاله الروحانيين الغيبيين إلى هذا الغلام ليغتالوه لأنه يحمل احتمالات شريرة وأليمة لوالديه وللآخرين؟

إن سلوك الله مع الشيطان وتوظيفه له في وظيفته المعروفة والمنقولة المروية لنا كان معناهما أن يفرح الله أقوى الفرح بوجود مثل هذا الغلام ذي الاحتمالات الأثيمة، وأن يبعث إليه حرساً سماوياً ليحميه ويحافظ على حياته ويبارك وجوده واحتمالاته الشريرة. إن وجوده حينئذ مساعدة للشيطان، إنه قوة في وظيفة الشيطان التي هي أكبر وأنبل وأعلى وظيفة عند الله. إن وجود مثل هذا الغلام الشرير لا بد أن يكون حينئذ مجاملة ضخمة واستجابة ضخمة لحكمة الإله ولمنطقه الذين بهما خلق الشيطان ووهبه الخلود والمواهب القوية المنتصرة على كل شيء حتى على الله نفسه وعلى أنبيائه وعلى كل ما عانى من تعاليم ومواعظ وكتب مقدسة. إن تخليد الشيطان ليفسد البشر، وإن تركيب الشهوات والضعف والغباء فيهم ووضع كل أسباب الغواية أمامهم لأدلة على أن الله محارب للإنسان ومعاد له، وليس مساعداً مهما بعث إليه بالتعاليم والنبوات المقهورة. إن الله يعلم أن الأنبياء والمعلمين الذي يبعث بهم مهزومون أمام الشيطان. فإرسالهم استهزاء بالإنسان لا مساعدة له. أيها المفكرون عن السماء، المبلغون عنها، لماذا تفضحون أخلاق وذكاء سكان السماء بكل هذه القسوة؟

وفي ختام رسالتك المملوءة بالتساؤل والحيرة والحماس النفسي والفكري، تطلب مني أيها الصديق التفسير والهداية. لقد كانت تساؤلاتك تساؤلات حادة وصادقة ومحاصرة ومعاقبة للفكر بقسوة وشمول. لقد كانت أسئلة فيها كل معاني وطاقات الافتراس.

ولكني امرؤ لا يفاجأ بالتساؤلات ولا يهدى إليه جديد منها. إن كل التساؤلات وكل المتسائلين يعيشون داخلي، إنهم بعضي، بعض وجودي وبعض تساؤلاتي الباهظة الآلام والأحزان. إن كل التساؤلات وكل المتسائلين يعيشون في ذاتي، في عقلي ومشاعري وتحديقاتي وفي أعصابي وأخلاقي وكلماتي وفي كل آفاقي واتجاهاتي وفي كل تفاسيري وقراءاتي.

إنني لست إنساناً يسأل أو إنساناً مريضاً بالسؤال، ولكني سؤال يسكن إنساناً ويعذب إنساناً. إني لست سؤالاً عالمياً أو كونياً، إني أكثر من ذلك، أكثر معاناة وعذاباً من ذلك. إنه ليس العالم أو الكون هو وحده الذي يتحول إلى أسئلة لتعاقبني وتعيش بوحشية في كل وجودي، في كل أفكاري وتحديقاتي وآمالي وأحلامي وأخلاقي وفي كل آلامي.

إنه ليس الوجود وحده هو الذي يعتدي عليّ متحولاً إلى أسئلة عدوانية مقاتلة لمنطقي وأخلاقي ونماذجي وأماني.

إن غير الوجود أيضاً، أن غير العالم وغير الكون يتحول في وجودي إلى أسئلة فيها كل معاني القتال وأدواته الضاربة، الضاربة بكل عنف. إن غير الموجود يتحول إلى أسلحة تقاتلني، إنه يتحول إلى أسئلة فيها كل معاني وجنون وقسوة الأسلحة. إنه لعذاب فوق الاحتمال أن تواجه الموجود، متحولاً إلى أسئلة، فكيف تواجه الموجود وغير الموجود متحولين إلى أسئلة؟ إن غير الموجود يتحول مثل الموجود إلى أسئلة مقاتلة. إن ذاتي جهاز هائل لصناعة الأسئلة ولصياغتها ولإغرائها بالتجمع فيها ولدعوتها إليها وللترحيب بها وللبحث عنها ولإطلاقها على كل الاتجاهات والأشياء، وبكل الأساليب وعلى جميع المستويات. إني أمارس ذاتاً هي أعظم مصنع في الكون للأسئلة، وأكبر مكان تتجمع فيه الأسئلة، وأكبر جهاز لإطلاق الأسئلة. إنها أعجب جهاز لتحويل كل شيء إلى عذاب، إلى تصادم ومناقضة باهظة التعذيب.

إن كل شيء، وإن أي شيء، وإن ما ليس شيئاً أيضاً ليتحول إلى سؤال، إلى كل صيغ وأساليب الأسئلة. إنه لا شيء إلا ولا بد أن يتحول إلى أسئلة، إلى أعداد هائلة من الأسئلة تتقاتل في ذاتي. إن كل ما ليس شيئاً يتحول في ذاتي إلى أسئلة مقاتلة ـ حتى ما ليس شيئاً.

حتى التساؤل، إنه يتحول في وجودي إلى تساؤل. إني أسأل وأحول

كل شيء بل وكل ما ليس شيئاً إلى أسئلة، ثم أحول الأسئلة والتساؤلات إلى أسئلة وتساؤلات. إني أسأل ثم أسأل:

لماذا أسأل، من فرض عليّ أن أسأل، من يلقي داخل ذاتي الأسئلة، ولماذا، وماذا أريد حين أسأل. وهل أنا أسأل، وماذا يعني أن أسأل وماذا يعني أن يكون الإنسان سائلاً، وماذا يعني أن تكون الأشياء مسؤولة أو مسؤولاً عنها، ولماذا تجيء كذلك. لماذا لا تجيء صامتة مصموتاً عنها. لماذا أنا سائل والآخرون صامتون.

وهكذا بلا توقف ولا راحة ولا إقتناع ولا جواب. إن الجواب، إن أي جواب يتحول هو نفسه إلى مسيرة لا نهاية لها من الأسئلة، إن أطول مسيرة وأطول طريق في حياة الإنسان هما تساؤلاته. إن التساؤل طريق لم توضع له نهايات.

إن التفسير يحتاج إلى تفسير، وإن الاقتناع يحتاج إلى إقتناع وإن رؤية الشيء تحتاج إلى إقناع لماذا هو ذاته، ولماذا ذاته هي ذاته، ولماذا هذا الشيء، ولماذا أي شيء. وإن رؤية الله لتتحول إلى أسئلة أكثر وأصعب واحد من أسئلة: أين هو الله، كيف أقتنع بالله.

إن رؤية الله تصبح سؤالاً أضخم وأعصى من العجز عن رؤيته. إن رؤية الله تطلق الأسئلة ولا تسكتها.

إن اصطدامي بالله حين أواجهه ـ لو واجهته ـ أقسى وأقوى من اصطدامي به وأنا لا أراه ولا أواجهه ولا أقتنع به. إنه لا شيء يريح من عذاب السؤال حتى ولا أصدق وأقوى جواب.

إن الشمس تظل سؤالاً حزيناً ضائعاً، طالعة وغائبة، متعالية ومتهاوية.

إن هذا هو العذاب، فهل هو عذاب نبيل أم عذاب رديء، هل هو عذاب لذيذ أم عذاب أليم؟

هل هو عذاب أم هو محاولة للتخلص من العذاب، أو للفرار من العذاب أو لتخفيف العذاب أم لخداع العذاب؟

هل هو عذاب أم تداو من العذاب دون أمل في الشفاء؟

هل السؤال موهبة أم تعليم؟ هل موهبة التساؤل مزية أم تشويه؟

لماذا نجيء متسائلين أو عاجزين عن أي تساؤل مع أن مواجهاتنا واحدة وعيوننا متشابهة؟

إن التساؤل أسلوب من أساليب مقاومة العدوان، وأنه أيضاً أسلوب من أساليب العدوان. ألست حينما تتساءل إنما أنت إنسان يقاوم العدوان أو يوقع العدوان؟ أنت حينما تتساءل إنما تحاول أن ترفض أو ترد عدواناً قد وقع عليك، أو تحاول أن توقع عدواناً بأحد أو بشيء ما.

هل يمكن أن تسأل لو لم تكن تريد أن ترفض عدواناً لو تصنع عدواناً؟ هل يسأل من لم يرد عدواناً أو يواجه عدواناً؟

لقد اعتدى عليك الكون والطبيعة والحياة والآخرون والحشرات والمعلمون والمذاهب والنظم. لقد اعتدوا على عينيك وعلى أخلاقك وعلى تفكيرك وأمانيك ونماذج وأحلامك وعواطفك وعلى احتياجاتك ووجودك بكل أساليب ومستويات العدوان وبكل تعبيراته. لقد اعتدوا عليك حتماً، إنهم دائماً عدوان عليك، لأنهم دائماً تناقض معك ورفض لك واصطدام بك وتحد بل وإذلال وقهر لك. إن هذا هو الذي يحدث دائماً، ويمارسه دائماً كل شيء وكل أحد حتى أنبل وأتقى وأعدل الناس، حتى الأنبياء والقديسون. إن هذا هو الذي يحدث دائماً ويمارسه كل أحد وكل شيء دائماً وإن كان ذلك بلا تدبير أو قصد بل أو علم.

إن أي شيء وإن أي إنسان لن يستطيع أن يكون غير معتدى عليه. إن الوجود عدوان معطى وعدوان مأخوذ.

ونحن في الأكثر لا نرى هذا العدوان ولا نفطن له ولا نقف ضده بأسلوب المقاومة المعلنة المباشرة لكونه عدواناً شاملاً ودائماً، لكونه عدواناً عالمياً كونياً أبدياً أزلياً، ولكونه أحياناً يبدو كالاحتياج والضرورة والحماية والتدين.

إذن فأنت حينما تسأل عن الكون أو عن الحياة أو عن الناس والمذاهب أو عن أي شيء: لماذا، أو ما هذا، أو من أين، أو إلى أين، أو متى، أو كيف... إنما تحاول ـ بأسلوب غير مقروء ـ أن تقاوم العدوان الذي يوقعه بك الكون والحياة والناس والمذاهب والنظم والأنبياء والمعلمون ـ الذي يوقعونه بعينيك وتفكيرك وبأخلاقك وبأمانيك ونماذجك وباحتياجاتك وبكل حياتك ووجودك.

إن منطقك وأخلاقك وتحديقاتك ونماذجك ومثلك واحتياجاتك وحتى آلهتك واقعة دائماً تحت كل أساليب العدوان... إن سؤالك عن الشيء يعني في نفسك أن ذلك الشيء الذي تسأل عنه شيء غير معقول أو غير ملائم أو غير عادل، أو أنه بلا هدف أو معنى أو منطق. أي أنه شيء تستنكره، وترفضه وتخطئه وتعاني منه أخلاقك ونظراتك. إنك إذن تقاومه بأسلوب ما من أساليب المقاومة. إنها مقاومة فكرية وأخلاقية ونفسية، إنها قتال بلا سلاح. إن القتال بلا سلاح هو أشمل أساليب القتال.

إن كل العلاقات والمواجهات والنظرات أساليب قتالية مختلفة ولكنها لم تحسب قتالاً لأنها كانت قتالاً بلا سلاح.

هل يوجد إنسان لا يقاتل هذا القتال؟ هل يوجد إنسان واحد ـ مهما كان عدواً للحروب والقتال، ومهما كان جباناً أو ضعيفاً ـ لا يقاتل هذا القتال الذي هو قتال بلا سلاح، وبلا أحداث جراح؟

بل هل يوجد شيء ما لا يقاتل هذا القتال بكل أساليب القتال وبكل غضبه وحماسه وشهواته؟

هل يوجد إنسان واحد لا يقاتل الكون أو الحياة أو الناس أو الحشرات أو الآلهة بأخلاقه أو بتحديقاته أو بأفكاره أو باشمئزازه أو بغثيانه أو بأي أسلوب من مشاعره؟

هل يوجد إنسان واحد لا يعبر عن قتاله هذا بتساؤلاته، بأي مستوى من مستويات تساؤلاته؟ وهل يمكن أن يوجد من يسائل دون أن يكون مقاتلاً؟

أو هل يمكن أن يقاتل من لا يسائل؟ أليس السلاح هو أعنف أساليب التساؤل والمساءلة؟

إن القديس أو النبـي الذي يهتف بكل قوة الايمان والتقوى والخشوع قائلاً: يا إلهي، ما حكمتك، ما أسرارك في كل ما أرى وتفعل ـ ما حكمتك البارعة البالغة في تعذيب هذا الحيوان الأعجم، أو في تشويه هذا الطفل البريء؟ . . . إنني لم أفهم يا إلهي ما حكمتك ولا ما أسرارك فيما تفعل وأرى.

هبني يا إلهي العظيم القدرة على الفهم، على فهم أسرارك وحكمتك. هبني القدرة على الفهم يا إلهي الذي أسأله ولا أجادله أو أحاسبه، والذي أعجز عن فهمه دون أن أعجز عن الايمان به أو عن الاقتناع بحكمته، والذي أبكي من ضرباته دون أن أشك في عدله أو في جماله أو في رحمته، والذي أرفض أفعاله دون أن أرفض أي شيء من تدبيره أو من ذكائه أو من منطقه، والذي أخافه وأخاف مفاجآته ونزواته دون أن أكرهه ـ والذي أكرهه دون أن أعتقد أني أكرهه.

نعم، إن القديس أو النبـي الذي يهتف هذا الهتاف إنما يعني أن يقول:

أنت يا إلهي معتد عليّ، إن أنت معتد على رؤاي وعلى منطقي وعلى أخلاقي وعلى احتياجاتي، وعلى كل نماذجي وآمالي وصوري النفسية، وعلى كل مشاعري الإنسانية. وأنا لهذا أقاومك، وأقاومك، وأقاتلك، أقاومك

وأقاتلك دون أن أحمل عليك سلاحاً ـ أقاومك وأقاتلك بتساؤلاتي.

إني أتساءل، إني إذن أقاتل، أقاتل، قتالاً شاملاً ولكن دون أن أحمل سلاحاً... والقتال بدون سلاح هو أقسى وأشمل وأدوم أساليب القتال. إن القتال بالسلاح هو بعض هذا القتال.

وهل تعلم الآلهة أن الذين يتساءلون عنها أو عن حكمتها وأسرارها أو يسألونها الفهم والرؤية إنما هم قوم يقاتلونها وينكرونها؟ أو هل تعلم أن الذين يحزنون أو يئنون أو يتألمون أو يشكون مما يعانون أو يرون أو يجدون أو يعرفون إنما هو قوم يحتجون عليها وينقذونها بصراخ وإعلام... يحتجون على تدبيرها ومنطقها وعلى أخلاقها، وينقدون كل ذلك منها؟

هل تعلم الآلهة أن الأشياء والبشر لا يقاتلون شيئاً مثلما يقاتلون الآلهة؟ هل تعلم أن الصلاة لها من أقوى أساليب مقاتلتها؟

إنك إذن حينما تسأل إنما تحاول أن تقاوم عدواناً قد أصابك.

وكذلك أنت حينما تسأل إنما تصنع عدواناً تصيب به أحداً أو شيئاً.

لهذا فإن جميع الآلهة والطغاة والأنبياء والمعلمين يحرمون عليك أن تكون سائلاً أو متسائلاً... إنك إذا تساءلت عن شيء أو عن أحد، أو سائلته فلا بد أنك قد حدقت فيه، أو أنكرته، أو فكرت أو شعرت ضده، أو تناقضت معه، أو كرهته، أو عجزت عن فهمه وعن تسويغه، أو اشمأززت منه، أو حسدته، أو نافسته. إنك إذن قد اعتديت عليه بأسلوب ما من أساليب العدوان. إنك حينما تحدق بنظراتك إنما أنت محدث بنفسك، والتحديق النفسي هو أشمل أساليب العدوان. إن إطلاق السلاح ليس إلا بعض التعبير عن التحديق النفسي. إن السلاح بعض ممارسة النفس لتحديقاتها.

إن تحديقاتك في الآخرين، وإن أفكارها ومشاعرك المسددة إليهم، المطلقة عليهم، وإن تساؤلاتك عنهم، وإن مشاعرك بالتناقض معهم

وبالاشمئزاز منهم وبالحسد لهم وبالعجز عن فهمهم وتسويغهم ـ أن ذلك كله ليس إلا أسلحة قتالية تطلقها على قلوب الآخرين وعقولهم، وعلى مشاعرهم ونظراتهم، بل وعلى خطاهم وأيديهم، وعلى توازنهم ووقارهم، وعلى كل وجودهم، دون أن تشعر بالذنب، بل ودون أن تعلم أنك ـ فعلت ذلك، ودون أن تريد فعله.

إنك سلاح مطلق دائماً على الأشياء وعلى الآخرين، وإن الأشياء والآخرين لأسلحة مطلقة دائماً عليك. وإن التساؤلات عنك وفيك ومنك وإليك لهي أسلوب الإطلاق لهذه الأسلحة، وجهاز الإطلاق، ولغة الإطلاق.

إنك لن تتساءل دون أن تحدق أو ترفض أو تنكر أو تتناقض أو تشمئز أو تبغض أو تعجز عن الفهم أو التسويغ أو الاحتمال أو التقبيل، أو دون أن تخاف أو تشك أو تغضب. وهل يمكن أن تكون كل هذا أو بعضه دون أن تكون ممارساً لكل أساليب العدوان أو لبعض أساليبه؟

إذن فأنت إذا كنت هذا أو بعضه فأنت معتد. وحينما تكون معتدياً فهناك حتماً معتدى عليه. إذن فالتساؤل ليس إلا عدواناً تمارسه ضد الأشياء وضد الآخرين، أو عدواناً يمارسه الآخرون ضدك أو ضد الأشياء. إذن هل يوجد من ليس معتدياً ومعتدى عليه؟

هل يمكن أن يوجد أي تشريع أو أية حماية ضد هذا الاعتداء مأخوذاً ومعطى؟

* * *

أيها الصديق. لقد كنت عنيفاً، إنه لم يكن فيك شيء من الرفق. لقد أطلقت في احتشاداً تاريخياً أليماً. فهل دبرت لهذه القسوة على من لا يحتاج إلى أي مزيد من القسوة؟

ولكن دعني أتساءل عما تساءلت عنه. غير أن عليك ألا تنتظر مني أي جواب. إنك قد أخطأت خطأ غير معذور إن كنت قد قدرت أن تتلقى أي جواب.

إني أيها الصديق لست واهب أجوبة. إني أحول كل جواب قد بصمت عليه كل الآلهة وكل المعلمين وكل المذاهب والمذهبيين إلى أعصى الأسئلة التي لا جواب عن واحد منها.

إني لست نبياً أو معلماً يضع أمام كل سؤال جواباً يكون الموت والاتهام بالزندقة أو الخيانة هما بعض جزاء من يشك فيه أو من لا يجن للاقتناع به والدعوة إليه.

إن الاقتناع بالأجوبة المصنوعة أسلوب تاريخي عالمي من أساليب البحث عن السلامة والأمن.

إني أيها الصديق لست نبياً أو معلماً يضع على كل تساؤل عن أية دمامة أو غباء أو عبث أو تفاهة أو قسوة أو ظلم أو قذارة أو ألم أو جنون في الكون أو في المجتمع أعداداً هائلة من الأجوبة، تحرسها وتفسرها وتوقع ليها وتقاتل دونها أشرس الآهلة وأغباها أو أشرس المذاهب وأغباها، أو أشرس المخاوف وأغباها، أو أقوى الجيوش وأغباها، أو أشرس التاريخ وأغباه. إنني لا أحرس الأجوبة المحروسة ولكني أحاول أن أرفع الحراسة عنها وأن ألقي بها إلى أعنف المعارك.

إنني لست نبياً ولا معلماً يسكتان كل التساؤلات بسطوة الآلهة والمذاهب، ولكنني إنسان يحول كل شيء إلى تساؤلات تتصاغر أمام أصغرها أشرس الآهلة والمذاهب. إنني لست نبياً ولا معلماً يسكتان كل تساؤل بسطوة الآلهة والمذاهب وبسطوة السلاح...

إنني لا أفسر الآلام والأحزان تفاسير تحولها إلى صلوات للآلهة

والطبيعة وإلى محاباة للإنسان، ولكنني أفسر المسرات والملذات تفاسير تحولها إلى افتضاح للآلهة وللطبيعة وإلى عدوان على الإنسان وإذلال له.

إنني لا أضع التفاسير، ولكنني أبطل ما وضع منها.

إنني لا أشيد الهياكل ولكنني أهدم ما شيد منها.

إنني لست حارساً ولكني مقاوم لجميع الحراسات. إني لست حارساً للآلهة أو للنبوات أو للزعامات أو للمقدسات أو للتعاليم أو للتاريخ من العقل أو من الإنسان أو من غضبه وتمريده ولكني حارس للإنسان من كل حراسة.

إنني لا أصلي لمن وهبني الظلام شكراً له لأنه واجب، أي لأنه قد وهبني شيئاً هو الظلام.

وكم هم الذين يصلون لمن وهبهم الظلام لأنه في حسابهم واهب. والواهب ولو الظلام تجب له الصلاة.

ولكنني أحاسب من وهبني الشمس لأنه واهب عابث، لأنه قد وهبني الظلام والعبث. أليس من وهبك الشمس فقد وهبك حتماً الظلام والعبث؟

أليس من وهبك الحياة فقد وهبك حتماً الموت والأمراض والشيخوخة والأحزان والتلوثات؟

إنني لا أشكر من أوجدني، لأنه لم يوجدني لأنه يحبني، أو لأنه يختار لي، أو لأنه يستجيب لما أريد. ولكنه أوجدني لأنه يتعزى ويتداوى من آلامه وفراغه بإيجادي.

إنه لم يوجدني بحثاً عني أو عن احتياجاتي لقد كان إيجاده لي هجوماً علي. إنه لم يوجدني وإنما أوجد نفسه.

إنني لا أشكر من أوجدني، لأنه لم يوجدني بالتدبير، وإنما أوجدني

لأنه لا يستطيع أن يصمت عن إيجادي، لأنه لا يستطيع أن يصمت بوقار عن صناعة البعث.

إنه يوجدني لأنه عابث، ولأنه مدفوع من داخله، لأنه هارب إلى إيجادي، وهارب بـي وإليّ. إنه لا يوجدني لأنه طيب. لأنه يصنع السرور أو المجد لأحد أو لشيء.

إنه يوجدني كما يعبث المتعب بلحيته أو كما يقضم أظافره، ولا يوجدني كما يضع المهندس خطوطه وأرقامه. إنه يوجدني بالمنطق وبالنيات وبالأخلاق التي بها يمرضني ويشوهني ويقتلني.

إنه لا يوجدني كما أريد كما ينبغي. إنه لا يختار لي، ولكنه يوجدني بالأسلوب وبالحافز اللذين بهما يصنع لي الدموع والأحزان والآلام والعار والدمامة دون أن يبكي أو يخاصمه ضميره. هل شكر البشر كائناً يستحق كل غضبهم ورفضهم مثلما شكروا من أوجدهم أو من حسبوا أنه قد أوجدهم؟

* * *

يكذبون لكي
يَـروا الإلـه جميـلاً

«... ألست حينما تقول: الكون جميل أو رحيم أو صديق أو معقول أو أخلاقي إنما تدافع عن الإله وتغفر وتستغفر له وتستر عليه، إذا كنت تؤمن به ـ أو تدافع عن الطبيعة وتغفر وتستغفر لها وتستر عليها، إذا كنت تؤمن بها؟ أليس في الكذب كل معاني المحاباة للإله كما أن في الصدق كل معاني الهجوم والقسوة عليه؟ أليست هذه المحاباة للإله مثل المحاباة للأبناء حينما يوصفون أو يمدحون بنقيض ما فيهم؟ أليست مثل المحاباة للسلطان الرديء أو للوجه الدميم حينما يقال لهما أو فيهما ما يريدان أو ما يجب أن يكوناه لا ما يوجد فيهما؟ هل يمكن أن يطاق الإله أو أن يغفر له لو عومل بالصدق أو فسر أو فهم بالصدق؟ هل يمكن أن يطاق أي شيء أو يغفر له لولا الكذب ـ لولا الكذب المنطقي والنفسي والديني والمذهبي والتعليمي والأخلاقي؟ أليس الكذب هو أذكى وأنفع اختراعات الإنسان في مواجهته للطبيعة ولنفسه وللآخرين ولأربابه وأنبيائه وزعمائه ـ في معاملته لواقع لا يمكن غفرانه أو فهمه أو تفسيره أو تسويغه، كما لا يمكن الفرار منه؟

«... إننا لمحتاجون إلى أن نكون مكذوباً علينا مثل احتياجنا أو أكثر من احتياجنا إلى أن نكون كاذبين...

«... أيهما الكاذب أو المذنب: الوجه الدميم أم الذي يقول عن مثل

هذا الوجه: إنه جميل، رحمة أو حباً أو تهذيباً أو مجاملة أو تحرجاً أو تمنياً؟ . . . وهل فيهما كاذب أو مذنب؟ . ».

* * *

يجيء الإنسان ليظل يواجه ويعايش ويمارس كوناً رهيباً من التصادم والتناقض والمخالفة والمقاومة والرفض. إنه يجيء ليجد كل شيء يصادم ويناقض ويخالف ويقاوم كل شيء فيه ـ ليجد كل شيء فيه يصادم ويناقض ويخالف ويرفض ويستنكر كل شيء يجده ويواجهه ويتعامل به أو معه.

إنه لا يجد شيئاً كما يريده أو يتمناه أو مسالماً لمنطقة أو لأخلاقه أو لاحتياجاته.

إنه يجيء ليظل يتصادم بكل شيء حتى بذاته، وليظل كل شيء يتصادم به حتى ذهنه. حتى ذاته لتظل تتصادم به، لتظل ذاته تتصادم بذاته.

إن الإنسان يجيء ليظل يمارس حرباً دائمة، مختلفة المستويات والأساليب والمعاني والجبهات والأعداء.

إن منطقه وأخلاقه وأمانية واحتياجاته وتوقعاته وضميره وحبه وبغضه وتعاليمه وأديانه ومذاهبه وتجاربه ورؤاه ـ إن كل ذلك فيه ليتناقض ويتصادم بكل شيء، وإن كل شيء ليتناقض ويتصادم بكل ذلك فيه. إنه لتناقض وتصادم يتحولان إلى حروب وعداوات، بكل معاني الحروب والعداوات، وبكل أسبابها وشمولها ونياتها وأحقادها ومخاوفها، وبكل أسلحتها.

بل إن كل ذلك ليتناقض ويتصادم به هو، وإنه هو ليتناقض ويتصادم بكل ذلك. حتى آلهته وأنبياؤه وقديسوه ومعلموه، إنهم ليتناقضونه ويصدمونه. إنهم ليصدمون عينيه وأخلاقه وذكاءه وإيمانه وأمانيه وجميع معانيه وتطلعاته. إن أربابه وأنبياءه ومعلميه ليناقضونه ويصدمونه أكثر مما يناقضه ويصدمه أقوى أعدائه، أو شر أعدائه. إن معابد الإنسان وكتبه

المقدسة لتناقضه وتتصادم به أكثر مما تناقضه وتتصادم به ملاهيه وآثامه بل وخصومه وأعداؤه.

هل يناقض منطق الإنسان وأخلاقه، أو يصدمه في منطقه وفي أخلاقه مثلما يفعل له ذلك أربابه؟ هل يصدم إيمان الإنسان شيء مثلما تصدمه أربابه؟

إنه لا شيء يصدم إيمانه مثلما يصدمه ما نؤمن به، وإنه لا شيء يجرح عيوننا كالذي تريد التطلع إليه عيوننا... إن الإنسان ليجيء ليعيش في عالم موحش مخيف من الأعداء والأضداد، ومن الخارجين عليه، ومن الرافضين والمخيفين والغائظين له، ومن الشاتمين لمنطقه ولأخلاقه ولعينيه، ولكل معاني الإنسان فيه. أما عيناه فوا أسفاه لهما. إنه لا شيء يواجه من العدوان عليه ومن الأسلحة المقاتلة له النافذة فيه مثل عيني الإنسان. إن عيني الإنسان هما أشهر معتدي عليه. إن كل شيء خروج عليه، خروج على منطقه وعلى أخلاقه وأمانيه وتفاسيره واحتياجاته، وعلى إرادته وفهمه وسروره، وعلى حبه وصداقته، وعلى مثله ونماذجه، وعلى أديانه ومذاهبه، وعلى جميع مقاييسه المادية والأدبية والروحية والإنسانية. إن كل شيء يواجهه ويراه ويعلمه ويعامله خروج على إيمانه وعلى كل شيء طيب وجميل فيه، بل وعلى كل شيء رديء ودميم فيه: إن كل شيء يتحول إلى خصم له وعدوان عليه.

أجل، حتى عيناه... أواه... ما أقسى ما تصنع به وتعامله وتشاتمه وتناقضه عيناه. إن عينيه لأضخم جهاز تفجير وإشعال حرائق دائمة باهظة داخل ذاته، وداخل تفكيره. إن عينيه لاقسى ظالم له، إن كل شيء لظالم له وظالم لعينيه. إن شيئاً لم يظلم الإنسان مثلما ظلمته عيناه، وإن شيئاً لم يظلم مثلما ظلمت عينا الإنسان. إنه مظلوم بعينيه ومظلومة عيناه.

إن الواقع أو الموجود هو دائماً أقل أو أضيق أو اردأ أو أغبى مما

يريده ويتوقعه ويتمناه ويحتاج إليه الكائن الحي المعايش له والعائش فيه. إن الكائن الحي يجد الواقع أو الموجود الذي فرضت عليه معايشته والعيش فيه ـ إنه ليجد الواقع أو ليجد الموجود كل ذلك، أي كل هذه المناقضة والمخالفة والعجز عن التكافؤ والملاءمة.

إنه لا يجد شيئاً واحداً فقط جاء أو يجيء مساوياً أو مشابهاً أو مقارباً ومجاملاً لشيء من مثله أو من نماذجه المختلفة ـ النفسية أو الفكرية أو الأخلاقية أو الدينية أو المذهبية أو الذاتية. إن كل شيء يتحول إلى مشاتمة وإلى مهاجاة له. إنه لا شيء يجيء مساوياً لاحتياجاته أو لأمانيه أو لمثله، تحت أي ظرف ولا بأي تفسير ولا بأي مقياس أو منطق.

إنه لتوجد دائماً فجوة أو مسافة أو خصومة واسعة وحادة بيننا وبين ما نجد ـ بين كينونتنا ومنطقتا وكينونة ومنطق جميع الأشياء وجميع الكائنات التي فرضت علينا مواجهتها ومعايشتها ومصادقتها، بل التي فرض علينا الخضوع لها والتعامل معها والتحديق فيها والدفاع عنها والتعري أمامها، وتعريها أمامنا. إنه ليوجد دائماً بيننا وبين جميع الأشياء والكائنات خلاف وغضب وعداء وعجز عن التفاهم والتوافق والثقة والحب والاحترام، وعن التابه في الأهواء أو في الأشواق أو في النبات أو في الاحتياجات أو في الآلام والمصير، أو في المنطق أو في التفاسير، أو في الأحزان والمسرات. إننا دائماً عرباء، نواجه ونعايش عغرباء، بل لا نعايش أو نواجه إلا غرباء.

إن هذا يعني أن الإنسان لا بد أن يكون بأسلوب ما وعلى مستوى ما بل لا بد أن يكون بكل الأساليب وعلى كل المستويات، خارجاً على نفسه ونقيضاً لها بل وخصماً، وخارجاً على ظروفه، ومناقضاً مخاصمها لها، وخارجاً على الآخرين ومخاصماً مناقضاً لهم. إنه لا يستطيع أن يتعامل بكل ذاته ومعانيه مع الأشياء والكائنات التي حوله أو مع الآخرين تعاملاً حراً ومتلائماً وصادقاً، أو تعامل أصدقاء أو متوافقين.

إذن كيف يواجه هذا الموقف؟ أو كيف تغطي أو تملأ هذه الفجوة أو هذه المسافة، أو تعالج هذه الخصومة أو المناقضة؟ كيف يكون العلاج أو كيف ينبغي أن يكون؟ إن هذه هي القضية الصعبة. إنه لا بد من العلاج ولو علاجاً كاذباً أو زائفاً، إنه لا بد من محاولة العلاج. إن الإنسان لا يستطيع أن يواجه ما لا يقبل أو يريد بدون محاولة ما ليبدو وكأنه قد انتصر... إن الناس أحياناً يحاولون أن يواجهوا هذه الحالة المحتومة الصعبة بالقوة وبالمقاومة وبأن يفعلوا شيئاً. وقد يستطيعون أن يفعلوا، أو يظلون يحاولون. وقد يواجهونها أيضاً بالصدق والنقد والرفض المنطقي والأخلاقي والنفسي. أي انهم قد يعرفون هذه الحقيقة ويعلنون اعترافهم بها، ويرفضونها رفضاً فكرياً وتعليمياً ونفسياً، ولا يذهبون في مواجهتهم لها إلى الكذب ليخفوها، وليحولوا الكذب بها ولها إلى تعاليم وأديان ومذاهب وإلى مستويات إنسانية.

وإنهم أي الناس ليذهبون أحياناً ليواجهوا ويعالجوا هذه الحالة بأسلوب آخر، بأسلوب مناقض. إنهم أحياناً أخرى ليذهبون يواجهون ويعالجون هذه الحالة بالفرار والانخداع والخداع. ولكن هذا أيضاً أسلوب من أساليب المقاومة. أليس الفرار من الموقف أو من الرأية أو من الفهم أو من المقاومة أسلوباً من أساليب المقاومة النفسية أو الفكرية أو الأخلاقية؟

إنهم أحياناً ليذهبون يكذبون ويبحثون عمن يكذبون لهم ويكذبون عليهم ليواجهوا ويعالجوا هذا الموقف الأليم المتصادم بين الإنسان وبين وجوده، وبينه وبين ظروفه، وبينه وبين الآخرين. إنهم حينئذ ليذهبون ويشترون الكذب ويشترون أنبياء الكذب ومعلميه بكل شيء، دون وقار أو ذكاء أو تأثم من دفع أي ثمن، لكي يغطوا أو يخفوا هذا التناقض والتصادم. لقد وجدوا في الكذب جهاز إخفاء وتغطية جيداً. إن الكذب هنا ليس هو إخفاء الواقع بل الاقتناع ضده وكذا التعليم ضده. إنه الكذب العقلي. وليس في الناس من يمارسون أحد الأسلوبين فقط ودائماً دون النقيض. إنهم جميعاً

يمارسون هذا وهذا على مستويات متفاوتة. حتى الأقوياء والأذكياء جداً لا بد وأن يمارسوا ولو أحياناً أسلوب الفرار والانخداع والخداع مهما مارسوا أسلوب القوة والمقاومة. كما أن الضعفاء والأغبياء لا بد أن يمارسوا ولو أحياناً قليلة أسلوب المقاومة والقوة. إنهم لا يستطيعون أن يختاروا دائماً الفرار والانخداع والخداع. إن القوي لا يستطيع أن يكون دائماً مقاوماً وقوياً، وإن الضعيف لا يستطيع أن يكون دائماً هارباً ورافضاً للمقاومة.

إننا لا نستطيع دائماً أن نكون جبناء وهاربين. إن الجبن أحياناً، وكذا الفرار يصبح أمنية صعبة، لا يستطيع الظفر بها كل فارس مقدام. إن الجبن ليصبح أحياناً بطولة لا يستطيع أحد ممن صناعتهم البطولات. إنه أي الجبن قد يصبح شجاعة لا يجرأ على اقتحامها أشجع الشجعان. إن الجبن قد يصبح مستوى أو أسلوباً من أساليب الشجاعة والكبرياء التي لا يستطيع الإقدام عليها أو الالتزام بها أحد. نعم، إن أحداً لا يستطيع أن يكون دائماً جباناً وهارباً.

لقد كان محتوماً أن يصبح البارعون في الكذب الأجرياء عليه زعماء وقادة وأنبياء ومعلمين، كما كان محتوماً أن يصبح الزعماء والأنبياء والقادة والمعلمون كذبة بأسلوب ما وعلى مستوى ما، أو كذبة بكل الأساليب وعلى كل المستويات. إن البارعين في الكذب والأجرياء عليه، أي الكاذبين جداً يصبحون أكبر الزعماء والقادة والأنبياء والمعلمين، كما أن أكبر الزعماء والأنبياء والقادة والمعلمين لا بد أن يصبحوا أكبر الكذابين ولا بد أن تصبح أكاذيبهم هي أكبر الأكاذيب. لقد كان مستحيلاً أن يكون هؤلاء بلا أكاذيب كبيرة بقدر ما يستحيل ألا يتناقض الإنسان مع وجوده ومع عقله وأخلاقه وآلهته.

إن هؤلاء يجيئون كالاعتذار عن هذا التناقض أو التصادم بين الإنسان وبين مواجاته وممارساته، أو كالتغطية أو التستر أو الإخفاء لهذا التناقض والتصادم. إنهم يجيئون كالعلاج الكاذب المخفف، أو كالعلاج الزائف

المقبول المريح. إنهم يجيئون كالطبيب الذي يعالج بالسحر وبالتحدث إلى النجوم وإلى الأرقام والأسماء التي لا تمارس الحياة ولا تمارسها الحياة. بل إنهم ليجيئوت اعتذاراً وعلاجاً، لا كالاعتذار وكالعلاج فقط، وأطباء لا كالأطباء فقط.

إن الطبيب هو أصعب الكاذبين على الاكتشاف. إنه لا أحد يصعب اكتشاف زيفه وكذبه وجهله أكثر من الطبيب أو مثل الطبيب. إنه لا يوجد جاهل أو كذاب أو زائف يوثق به ويؤتمن زيفه وجهله وكذبه على أعظم الأشياء وأغلى الأشياء قيمة، كالطبيب. إن الآلهة مع ضخامة المحاباة التي يهبها إياها اعتقاد المؤمنين بها لتذهب تحسد الأطباء على ضخامة المحاباة التي يهبهم إياها ضعف الناس واحتياجهم وعجزهم وجهلهم.

إنه لا يوجد جاهل عاجز كاذب يظن به العلم والقدرة والصدق ويطب منه المستحيل ويرجى منه المستحيل، مثل الطبيب. إنه لا يوجد من نحتاج إلى الاقتناع به وإلى أن ننتظر منه أن يصنع لنا ما لا يستطيع كالطبيب. إن الطبيب هو النبـي الذي لا يحتاج إلى أية معجزة.

إن جميع الزعماء والأنبياء والقادة والمعلمين والوعاظ، في جميع العصور والمجتمعات لا يساوون أكثر من المسافة التي تفصل بين ما يريده الإنسان وما يجده، أو لا يساوون أكثر من التناقض أو التصادم بين الإنسان وبين وجوده، أو بين احتياجاته وأمانيه وتطلعاته وبين واقعه. وإن الكذب تحت جميع ظروفه، ومفسراً بجميع أسبابه وتفاسيره لا يساوي أو لا يعني أكثر من هذه المسافة الفاصلة بين ما يريده الإنسان وبين ما يجده، أو من هذا التناقض والتصادم بين منطق الإنسان وجوعه وأشواقه وضروراته، وبين ظروفه وما يستطيعه.

هل يمكن أن نؤمن بأي زعيم أو نبـي أو واعظ أو بأي إله أو بأي دين أو مذهب لولا التصادم والتناقض والتعادي بيننا وبين مواجهاتنا واحتياجاتنا ومعايشاتنا أي بيننا وبين ما تريد ونشاهد ونعامل ونجد؟ إنه لهذا لا بد أن

يصبح أكذب الزعماء والدعاة والقادة والأنبياء هم أعظم حظوظاً وأعلاهم صوتاً ومكانة وقوة وسلطاناً وسحراً وثأثيراً على ذكاء السوق وفي حسابات السوق. إن أي زهيم أو واعظ نبـي، لو دخل أية سوق بلا أية أكاذيب، لما وجد من يشتريه بأي ثمن.

إن الكذب الذي تطالب به السوق وتريده وتحتاج إليه من هؤلاء، ومن جميع المتعاملين معها وعليها، ليس هو فقط الكذب الأخلاقي، وليس كذلك هو فقط الكذب الفكري والنفسي والتعليمي، بل هو كل ذلك. إن البشر لمحتاجون إلى أن يعيشوا كل أنواع الكذب وإلى أن يتعاملوا بكل أنواعه ويعلموا كل أنواعه. إنه الكذب الفكري والنفسي والتعليمي والأخلاقي.

وإنه لهذا لا بد أن يصبح الصادقون من الزعماء والأنبياء والدعاة والقادة، وكذا المحتاطون والمشترطون والمتوقرون والمتورعون في كذبهم، أي لو وجدوا، إن هؤلاء لو أمكن أن يوجدوا لا بد أن يصبحوا شذوذاً وقلقاً وتعذيباً وتشويهاً في السوق وللسوق. إنهم لن يصبحوا أنبياء ولا زعماء في حسابات السوق أو التاريخ... إنهم لن يصبحوا أنبياء ولا زعماء في حسابات السوق أو التاريخ... إنهم لو وجدوا فلن يجدوا منبراً ولا محراباً ولا إنساناً يصعدون فوقه أو يتوجهون إليه أو يتخاطبون ويتفاهمون معه. إنهم حينئذ لن يجدوا عيوناً أو آذاناً أو عقولاً أو أرواحاً يسقطون فيها ليفسدوا قدرتها على الرؤية والسماع وعلى الفهم والتقبل والرفض، أو ليفجروا فيها صدقهم. إن من يصدقون ومن يحتاطون أن يتورعون أو يتوقرون في كذبهم، إن هؤلاء لو أمكن أن يوجدوا لا بد أن يوصموا بأنهم من المفسدين والمعوقين، بل من الخونة والمرجفين ودعاة الهزيمة والتشاؤم، بل من المتآمرين والأعداء، بل من الهدامين الضالين المشوهين لجمال الآلهة ولجمال الطبيعة والأشياء، ولمزايا المذاهب والإيمان والاتباع، ولعبقريات الزعماء والقادة والمعلمين والأنبياء.

إن كل عبقرية الآلهة والأنبياء والزعماء وكل نظافتهم لا تساوي أكثر من الكذب لهم، ومن كذبهم لأنفسهم، ومن الكذب باسمهم. إن هؤلاء ـ لو وجدوا ـ لا بد أن يتهموا بأنهم من أعداء القيم الثابتة، ومن المخربين للثقة بالنفس وبالتاريخ وبالآباء وبما هو موجود، ومن الملقين بكل ذلك تحت أنياب الشكوك المفترسة. إنهم هدامون معادون للمجتمعات. إنهم أسلوب من أساليب الوباء. إنهم صانعون لوباء ومعبرون عن وباء وحاملون لوباء.

إن من يشكون محسوبون دائماً من أخطر المخربين والمتآمرين والأعداء. إن الشك كيفما كانت أسبابه وموضوعاته لا بد أن تحاسبه المجتمعات والمَسيطرون عليها أي على المجتمعان مثل قوة معادية أو مخربة أو متآمرة أو كل ذلك أو أكثر من كل ذلك.

إن الصادقين لا بد أن يعدوا في كل الأسواق والمجتمعات وفي كل التاريخ مخربين وأعداء.

* * *

أيتها الآلهة والنبوات والزعامات والمذاهب والعقائد والتعاليم... أيتها الأشياء والكائنات ـ كل الأشياء وكل الكائنات... ما أقل جمالك واردا حظوظك لولا الأكاذيب التي تهبك كل جمالك وكل حظوظك ـ لولا الأكاذيب العقلية والتعليمية والنفسية والأخلاقية. لولا الأكاذيب التي تهبينها والأكاذيب التي توهبينها. لولا الأكاذيب التي تتحدثين بها وعنها والتي تتحدث عنك وبك. إن هذه الأكاذيب هي غطاؤك العالمي الرهيب التأثير. إن تعليم التفاؤل هو أحد أكاذيبك، أو هو أحد الأكاذيب التي هي كل غطائك. إنه أحد الأكاذيب لك بقدر ما هو أحد أكاذيبك. إنه كذب منك وكذب لك وكذب بك.

إن التفاؤل ليس إلا سلاحاً يحمله الأقوياء والأذكياء والقناصة

والمقاتلون والذين يجدون ويملكون ويمكرون ـ يحمله كل هؤلاء ليطلقوه كسلاح ورصاص على الأغبياء والضعفاء والمهزومين، وعلى الذين لا يجدون ولا يملكون، ويراد لهم ألا يجدوا وألا يملكوا. إن هؤلاء لمحتاجون إلى أن يقاتلوا هؤلاء بالتفاؤل بقدر ما هم محتاجون إلى مقاتلتهم بالسلاح والسجون والمعتقلات وبكل أساليب الإرهاب.

إن الكذب والتفاؤل ليسا منطقاً، ليسا ذكاءً أو غباءً أو حباً أو أخلاقاً، ولكنهما أبدا سلاح، سلاح للضرب والقتال لا للزينة أو الاستعراض.

إن السلاح قد يكون أسلوب زينة أو استعراض. أما التفاؤل والكذب فهما أبدا أساليب قتالية إن الذي يحمل السلاح فوق المنبر ليس حتماً مقاتلاً، أما الذي يقول الكذب والتفاؤل فوق المنبر فهو حتماً مقاتل.

* * *

إن الصدق لا بد أن يقتل، أو أن يكلف ما لا يطاق، أو ما يرهق، أو ما لا يرضي، أو ما لا يريح، أو ما لا يصنع لنا التفاؤل، أو ما لا يحولنا إلى إعجاب روعة وكمال في عيون الآخرين وتقديراتهم، وفي معاملاتهم لنا وإحساسهم بنا. إن الصدق لن يكون جمالاً نحيا به ولا جمالاً نرى به. إنه لن يكون جمالاً في تفاسيرنا ولا جمالاً في ذواتنا أو كينوناتنا.

إن الصدق يشوه صورنا ونماذجنا المعروضة في الأسواق والتي نريد عرضها فيها. إنه يفسد رضا السوق عنا ويفسد رؤيتها لنا.

إن الصدق عدوان على آلهتنا وعلى أبطالنا وعلى أوهامنا وتفاهاتنا الجميلة. إنه عدوان على رؤيتنا وعلى تفاسيرنا لآلهتنا ولأبطالنا ولأوهامنا. إنه عدوان على آبائنا. عدوان على رواياتنا عنهم وعلى تصوراتنا لهم وعلى إعجابنا بهم وعلى انتمائنا إليهم. إن الصدق الحاد وزندقة وفسوق عقلي وأخلاقي وعاطفي ولغوي بالآلهة وبالأبطال وبالمعاملين وبالقديسين

وبالآباء، بل وبالتاريخ وبالطبيعة وبجميع الأشياء.

إن الصدق بذاءة ودمامة وقسوة وعدوان على الآخرين وعلى جميع الأشياء. حتى الشمس. إن الصدق عدوان وبذاءة وقسوة عليها. إنه يحولها إلى دمامة، إلى دمامة عقلية وأخلاقية ودينية ونفسية وذاتية.

إن الصدق همجية كهمجية الطبيعة. إنه تعبير عن همجية الطبيعة، وتحدث عنها، وإبراز لها، وتذكير بها. إن الصدق هو رؤية الطبيعة والتحدث عنها كام هي بكل ذنوبها وبشاعاتها. وهل توجد همجية أقسى من ذلك أو مثل ذلك؟ هل يوجد من يستطيع رؤية الطبيعة والأشياء والتحدث عنها كما هي؟ إن الصادق يتحول إلى طبيعة همجية بذيئة، ولكنه يتفوق عليها بالتعبير. إن الفرق بينهما أن الطبيعة تفعل وتمارس همجيتها وبذاءاتها دون تحديث أو تعبير عنها باللغة والتفكير والمنطق، أما الصادق فإنه يتحول إلى تعبير وإلى حديث عن هذه الهمجية وهذه البذاءات، وإلى تذكير بها، باللغة والمنطق والتفكير، بل وبالرؤية وبالتعليم، إن الصادق لا يعيش ويواجه فقط الدمامات والبذاءات، بل إنه يعلن عن ذلك ويشير إليه بقسوة وضجيج وبأسلوب كأنه التعبد...

أيها الصادق... إنك لتستحق الرثاء والمجاملة لما تعاني من بذاءة وهمجية كم أنت معذب ومزعج ومشوه ومخيف وشاذ وغير معقول... كما أنت كائن غريب وفريد... كم أنت أيها الصادق كذلك لأنك ترى الأشياء وتفهمها وتتحدث عنها كما هي. إنك تستطيع أن تراها وتفهمها وتعبر عنها كما هي. إنك لتجرؤ على ذلك وعلى ممارسته. إنه لأشد الهول لعقلك ولعينيك ولأخلاقك، بل ولتقواك وإيمانك أن ترى الأشياء وتفهمها وتفسرها وتتعامل بها كما هي بكل الصدق والحقيقة.

إذن كم أنت بذيء وهمجي وعدواني ومتوحش أيها الصادق؟ أنت أيها الصادق عدوان وخطر وتشويه وهجاء للآلهة وللأنبياء والآباء وللزعماء

وللقديسين. أنت تكذيب لهم وتهديد لمجدهم ولسلطانهم. أنت أيها الصادق العدو الدائم والعالمي لكل الأشياء ولكل الناس ولكل الالهة ولكل الجمال والتفاؤل.

أما أنت أيها الكذب... أيها الصديق، أيها المهذب، أيها الفادي لنا ولدماماتنا وتفاهاتنا ولآلامنا، ودفاعاً عن آلهتنا وتجميلاً لدماماتها وأخطائها، ولعبثها ولضياعها وغبائها وعن آبائنا الصغار جداً وعن تاريخهم الكبير والعظيم جداً.

ـ أما أنت أيها الكذب، أيها الكاذب، فما أجملك وأرحمك وأنبلك. ما أسمى وأتقى أخلاقك وروحك. إنك لا تكلفنا شيئاً، ولا تهددنا بشيء، ولا تعيرنا بشيء، ولا تفسد علينا شيئاً. إنه لا يوجد عميل أو صديق أو رحيم مثلك. إن أي شيء وأي إنسان وأي كائن لا يستطيع أن يستغني عن صداقتك أو عن رحمتك أيها الكذب.

إنك أيها الكذب، أيها الصديق النبيل، لا تفرض علينا أن نكون شيئاً، ولا أن نعمل شيئاً، ولا أن نترك شيئاً، ولا أن نتنازل عن شيء من ذنوبنا أو من أخطائنا أو من قبحنا وصغائرنا، أو من أكاذيبنا وبلاداتنا، أو أن نفقد أو نخفي شيئاً من تزويرنا وتلويثنا لأنفسنا ومن أساطيرنا عن آبائنا الصغار الملوثين جداً... والكبار المتطهرين جداً... الغزاة القهارين... والمغزوين المقهورين.

ـ نعم، إنك أيها الكذب النبيل لا تفرض علينا شيئاً من ذلك لكي ترضى عنا وتعجب بنا، ولكي تعلن عن رضاك عنا وعن إعجابك بنا، بل ولكي تعلمنا الإعجاب بأنفسنا والرضا عنها، وتعلمنا أن نعلن عن إعجابنا وعن رضانا بل وأن نحول إعجابنا ورضانا إلى مذاهب وأديان.

إنك لا تشترط علينا أي شرط لكي تهبنا كل ما نريد وكل ما لا نريد،

وكل ما لا نستحق. وهل لنا واهب سواك أيها الكذب؟ هل لأي شيء واهب سواك؟ إن كل ما نعده ونراه ونجده جمالاً أو مزية أو ذكاء أو منطقاً لم يصبح أو نجده كذلك إلا بك.

إنك لا تطالبنا بأن ندفن الجثة المخيفة اليشاعة والدمامة، ولا أن نحرقها، بل ولا أن نلقي بها بعيداً عن بيوتنا أو عن معابدنا أو عن أنفسنا.

بل إنك لا تطالبنا حتى ولا بإخفاء هذه الجثة. ولكنك تطالبنا فقط بإنكارها، بإنكار وجودها، أو بإنكار أنها جثة، أو بإنكار أنها دمية. إنك لا تطالبنا بأن نفقأ عيوننا، بل إنك لتطالبنا بأن نفترض عيوننا غير موجودة.

إنك لا تكلفنا بأن ننظف ملابسنا من الاتساخ، بل أن نلبسها من الداخل، بل أن نلبسها بكل اتساخها من الخارج، ولكن مع تعليق بطاقة فوقها تتحدث عن روعتها وروعة نظافتها. إنك لا تشترط علينا شيئاً من النظافة أو حتى إخفاء القذارة لكي تتحدث عن نظافتنا. إنك لا تترك الحديث عن نظافتنا حتى حينما نرفض إخفاء قذارتنا أو نعجز عن إخفائها. حتى الصمت، أنت لا تصمت عن الثناء علينا بما لا تجد إلا نقيضه. ولعل كل تعليم للنفس بأن تكون فاضلة ونظيفة لا يعني إلا لبس الملابس المتسخة من الداخل، أو لبسها من الخارج مع وضع رقعة فوقها تشيد بنظافتها، أو منقولة وساختها من وجهها الخارجي إلى وجهها الداخل. لعل كل التقوى لا تعنى إلا أن تكون مطيعاً بحركاتك وصلواتك، عاصياً بنياتك وشهواتك واحتياجاتك.

إنك أيها الكذب لأنت أفضل وأنبل خالق، لأنك تحاول أن تخلق ما ينبغي وما يراد، ولست تخلق فقط كما تفعل الآلهة والطبيعة. إنك تحاول أن تكمل وتجمل ما خلقته الطبيعة أو الآلهة ناقصاً أو دميماً. لهذا أنت أيها الكذب أفضل وأرحم خالق.

ما أقبح وأقسى وأنذل كل الأشياء لولاك أيها الكذب. . . أيها المناضل

لتستر عار الآلهة ودماماتها، ولتستر عار الطبيعة ودماماتها، ولتستر عار الإنسان وضآلاته وفضائحه وآلامه.

إنك أيها الكذب لأضخم محاولة عالمية للتكفير وللاعتذار عن ذنوب الأشياء وأخطائها وعاهاتها، وإليها من ذنوبها وأخطائها ودماماتها.

إنك لست فقط اعتذاراً عن عيوب الأشياء بل واعتذار إلى الأشياء من عيوبها.

إنك أيها الكذب لأنت أعظم مجاملة عالمية يجامل بها العالم نفسه. إذن لماذا يشتمل كل العالم أيها الصديق لكل العالم، أيها الكذب؟ لقد كان شتم العالم لك أسلوباً جيداً من أساليب التحية لك بل من إساليت المبايعة لك إنك أعظم صديق عالمي للآلهة وللناس وللطبيعة ولجميع الأشياء. إنك اعتذار إلى كل شيء عن دماماته وتفاهاته. إنك محاولة اعتذار عن كل شيء وإلى كل شيء. إنه لم توجد وسيلة يعتذر بها كل شيء إلى كل شيء مثل الكذب أو غير الكذب. إنه لا يوجد شيء يغفر لكل شيء أخطاءه وعيوبه بكرم ونبل مثلك أو غيرك أيها الكذب.

إن كل ذلك هو بعض مزاياك أيها الكذب إنك لا تطالب بشيء ولا تكلف أو تشترط شيئاً، ولا تحتاج إلى شيء ولا تحوج إلى شيء.

إنك لا تطالب لنفسك بأي شرط لكي تمارس كل نفسك ضد نفسك لمصلحة الأرباب والزعماء والمعلمين بل ولمصلحة الإنسان.

إنك أيها الكذب تحتاج فقط إلى جمهور شديد الغباء وشديد الرغبة في الإيمان والاتباع. بل إنك أحياناً تحتاج إلى جمهور شديد الذكاء. إن شدة الذكاء قد تعني شدة الرغبة في التصديق والاتباع، أو قد تقترن شدة الذكاء بشدة الرغبة في التصديق، أو إنه ليس محتوماً أن تنافي إحداهما الأخرى.

إن موهبة الذكاء لا تستطيع أن تعصم من احتياجات الغباء أو من

ممارساته أو من ضعفه أو من أخلاقه.

إن الأذكياء والأغبياء يتساوون أو يشتركون في تصديق الأكاذيب، بل قد يتفوق الأذكياء في هذا التصديق، لأن سلوكهم الذهني يكون أكثر وأقوى حماساً واستقبالاً وتلمساً، وأكثر حركة، وأقدر على الحركة. وتصديق الأكاذيب المعروضة قد يكون تعبيراً عن قوة الحماس والاستقبال والتلمس، وعن سرعة الاستجابة والحركة، وعن قوتهما، وعن القدرة على ممارستهما. إن الأذكى قد يكون هو الأسرع إلى الوقوع في الغباء وفي الأكاذيب الغبية. إنه قد يكون هو الأجرأ على ذلك والأكثر وقوعاً في طريقه.

إن تصديق الكذب ليس مستوى من مستويات الذكار أو الغباء أو من مستويات التقوى أو الفجور. ولكنه أي تصديق الكذب مستوى من مستويات الإنسان، أو تعبير من تعبيراته. إن الإنسان يصدق ويخدع ويتقبل لأنه إنسان لا لأنك ذكي أو غبـي، لا لأنه طيب أو شرير. إنه يصدق ويخدع ويتقبل بالأسلوب الذي به يجوع ويخاف ويموت ويمرض.

ولعله أي تصديق الأكاذيب ليس مستوى من مستويات الإنسان، وإنما هو تعبير من تعبيرات رفضه واحتجاجه وغضبه واشمئزازه، ومن تعبيرات تناقضه وتصادمه بتفكيره وبرؤاه، وبأمانيه واحتياجاته، وبتطلعه الدائم الحاد المصدوف المسدود دائماً. لعل تصديق الأكاذيب هو أقسى وأتقى أساليب الاحتجاج والغضب على كل ما هو كائن وعلى كل ما يمكن أن يكون. على منطق كل شيء وعلى أخلاق كل شيء وعلى احتمالات كل شيء.

إن الكذب الديني أو الوطني أو القومي أو المذهبـي أو التعليمي لأعظم وأسخى وأنفع هدية يهديها الأنبياء والزعماء والقادة الكاذبون الماكرون القتلة لجماهيرهم ومجتمعاتهم. إن هذا الكذب يهب هذه الجماهير والمجتمعات التفاؤل والراحة والاستقرار والتفاسير الذكية للحقائق البليدة. إنه أحياناً يخلصها من المعاناة الشاقة، ومن الرؤى الأليمة الشديدة الدمامة، ومن

الرفض والاشمئزاز الواهبين كل العذاب، ومن التفكير ضد كل شيء، وخروجاً على كل شيء. إننا لا بد أن نكون خارجين على كل شيء لولا هذا الكذب الديني أو الوطني أو القومي والمذهبي أو التعليمي. إننا بدون هذا الإيمان لا بد أن نخرج على كل شيء أحد أساليب الخروج.

إن الزعيم أو القائد أو النبي أو المعلم الذي يذهب يتحدث بكل الصراخ والافتضاح عن انتصاراته العسكرية أو السياسية أو المذهبية، أو الدينية أو الأخلاقية أو الدعائية التي لا يتسع لها الكون ولا منطق الكون أو ضميره أو أخلاقه، بل التي لا يتسع لها أو يقدر عليها ذكاء الآلهة أو قدرتها أو دهاؤها.

ـ نعم، إن ذلك الزعميم أو القائد أو النبي الذي يذهب يتحدث كذلك أو يكذب بهذا الأسلوب على جماهيره الصابرة الطيبة المطيعة الشديدة الإخلاص والغباء والولاء، منتزعاً لها هذه الانتصارات المتفوقة على ذكاء الآلهة وعلى كرمها ورحمتها وقدرتها وعلى كل تاريخها.

ـ نعم، إنه بذلك يهب جماهيره ويصنع لها أعظم الأشياء، وإنها لتباركه بكل مواهب الطاعة والاستسلام والإيمان والشكر والحب والاعتراف فيها. إنها لتذهب تهبه وتشكره وتباركه وتصدقه بلا حساب. إن الجماهير لا تصدق أو تشكر أو تحب بقدر ما يصمنع لها أو بقدر ما ترى، بل في الأكثر بقدر ما يقال لها ويكذب عليها.

إنه لممكن دائماً إخفاء الأكاذيب، أو التقبل أو الغفران لها مهما كان افتضاحها وتعريها. إن الناس قد يعجزون عن رؤية الأكاذيب مهما كانت ضخامتها، أو عن استقباحها مهما كانت دمامتها، أو عن رفضها مهما كانت بلادتها، أو عن محاكمتها أو محاسبتها مهما كانت ذنوبها، أو عن الاشمئزاز منها مهما كانت وقاحتها، إن الكذب شيء لا يمكن كما لا يراد اكتشافه. وإذا اكتشف أو بدا أنه قد اكتشف فالأمر لا يمكن أن يكون كذلك. إن الذي اكتشف هو أن إرادتنا لا تريد هذا الكذب الذي اكتشف، أو الذي بدا أنه قد

اكتشف، ولا تتلاءم معه، وإنما تريد كذباً آخر وتتلاءم مع هذا الكذب الآخر الذي ذهب يطارد ويرفض وينافس ذلك الكذب الذي بدا وكأنه قد اكتشف. ودائماً الأكاذيب تتنافى وتتنافس وتتشاتم وتتقاتل ويقتل أو يهزم أو يطرد بعضها بعضاً. لقد كانت كل المجتمعات في كل التاريخ ولا بد أن تستمر تخوض كل المعارك بأكاذيبها لمقاتلة الأكاذيب الأخرى.

إن القضية دائماً هي أن كذباً يطارد ويهزم كذباً. وليست القضية أن كذباً ما قد اكتشف أو أنه قد يكتسف، أو أنه قد يراد اكتشافه أو يتسطاع اكتشافه، أو يحاول اكتشافه، أو ان الكذب يكتسف الكذب.

إن الكذب قد يقتل الكذب أو ينتصر عليه ولكنه لا يكتشفه كما تقتل الحشرة الحشرة دون أن تكتشفها.

إن ترك أي شيء أو تخطيه ليس اكتشافاً له، أو ليس اكتشافاً لكذبه، ولكنه استبدال به، أو قدرة على الاستبدال به، أو إرادة لهذا الاستبدال. إن ترك إلٰه أو زعيم أو دين أو مذهب للانتقال إلى آخر ليس اكتشافاً بل استبدال وانتقال.

إنه لا توجد لغة أو علامات أو شعارات أو أخلاق خاصة بالكذب وأخرى خاصة بالصدق، كما لا يوجد آلهة أو أنبياء أو زعماء أو قادة للصدق وآخرون للكذب. إنه لا يمكن فهم هؤلاء أو تمييزهم من هؤلاء، أي لو أنهم كنوا موجودين، أي لو أنه كان الصدق آلهة وأنبياء وزعماء وقادة، وكان للكذب مثلهم أي نقيضهم من الآلهة والأنبياء والقادة والزعماء. إن آلهة وأنبياء وزعماء أي مذهب أو دين يستطيعون أن يكونوا آلهة وأنبياء وزعماء للدّين أو للمذهب المناقض تحت الظروف الأخرى.

إننا مهما عشنا الكذب أو عانينا منه فقد نظل نظنه أصدق الصدق. لقد عاشت البشرية أضخم الأكاذيب وكل الأكاذيب، أطول الدهور وكل الدهور، ولا زالت تفعل ذلك، دون أن ترفض نفسها أو تنكرها أو تنقدها أو تكتشفها.

إن معاناة الكذب لا تتحول إلى نقد له أو إلى غضب عليه. ولكن هل نكذب أو نتقبل الكذب لو تحول إلى معاناة؟ ألسنا نتقبل الكذب ونكذب هرباً من المعاناة؟

إن كل شيء يكذب هذه الأكاذيب السماوية الخالدة، ويسخر منها، ويفضح ضعفها، ويعري بكل قسوة سخفها واستحالتها.

إن أضخم الأكاذيب وأكثرها بشاعة وافتضاحاً قد تكون هي أقوى الأكاذيب في كل أسواق التاريخ. لأن أضخمها هي أكثرها إغراء للسوق واستجابة لاحتياجاتها وتوافقاً مع أخلاقها وشهواتها.

إن البشر عاجزون عن أن يجدوا أو يبصروا حدوداً بين ما هو صدق وحقيقة وما هو كذب وباطل. إنهم عاجزون عن أن يفهموا الفرق بين لغة هذا وشعاراته ومذاهبه وزعماء وأنبيائه، ولغة نقيضه وشعاراته ومذاهبه وزعمائه وأنبيائه. إن البشر لم يجتمعوا أو يتوقفوا في أي وقت ليسألوا عن الحدود والفرق بين النبـي الصادق والنبـي الكاذب.

إن هذه الحدود والفروق غير موجودة أو غير مفهومة. إنها حتماً غير معروفة وغير مستطاع أن تكون معروفة. ولكن هل هي موجودة؟ إنها مخاطرة عقلية وأخلاقية وإنسانية الزعم بأنها موجودة.

إن المعلم أو النبـي أو الزعيم الذي يقتنع بوجود هذه الفروق أو بمعرفتها ليستحق كل الرثاء.

ولعل حياة الإنسان غير محتاجة إلى معرفة هذه الحدود والفروق، بل لعل حياته غير محتاجة إلى أن تكون هذه الحدود والفروق موجودة.

ولعل منطقه وأخلاقه غير محتاجة كذلك إلى شيء من ذلك.

لعل مذاهب الإنسان وأخلاقه وأفكاره ونبواته غير محتاجة إلى وجود هذه الحدود والفروق، أو إلى معرفتها إلا بقدر احتياج غدده الجنسية إلى ذلك.

لعل أي شيء في الإنسان ليس محتاجاً إلى وجود هذه الحدود والفروق

وإلى معرفتها إلا بقدر احتياج منطق الحشرات وحياتها وأخلاقها ورضاها عن نفسها وعن شرفها وذكائها إلى ذلك.

إن الصدق هو واقع الطبيعة، وإن الكذب هو واقع الإنسان ـ إنه واقعه النفسي والفكري والمثالي والنموذجي والديني والمذهبـي والأخلاقي. أي حينما نفترض أن الصدق والكذب شيئان، أو حينما نفترض أنه يوجد صدق على أي معنى من معانيه.

إذن فالصدق والكذب كلاهما واقع، أي حين افتراضهما شيئين أو نقيضين. وحينئذ أليس الإنسان أحوج إلى واقعه من احتياجه إلى واقع الطبيعة؟ أي أليس الإنسان أحوج إلى أن يكون إنساناً من أن يكون طبيعة، أي أحوج إلى أن يكذب وإلى أن يعيش الكذب ويتعامل به ويتعلمه من أن يصدق ويعيش الصدق ويتعامل به ويتعلمه؟ إن الإنسان يكون إنساناً أي يكون شيئاً غير الطبيعة أو فوقها أو أكثر منها بقدر ما يكذب بقدر ما يكذب كذباً مذهبياً ودينياً وتعليمياً وأخلاقياً.

إن الزعيم أو القائد أو النبـي أو المعلم الذي يريد أن يكون صادقاً ويستطيع أن يكون صادقاً ويصدق ـ إن مثل هذا الزعيم أو القائد أو النبـي أو المعلم ـ لو وجد، لو كان ممكناً أن يوجد ـ لا بد أن يخسر كل صدقه وإغرائه وكل قدرته على الإقناع. إنه يصبح كائناً كريهاً وثقيلاً ودميماً وذميماً وجلفاً وقحاً مرفوضاً. إنه لا بد أن يحرض على نفسه كره الجماهير ورفضها ومشاعرها الجبانة الأنانية بلا ذكاء أو وقار. إنه لا بد أن يحرض ضد نفسه احتياجات الجماهير وتفاؤلها البليد الكسول ـ هذه الجماهير التي لا تستطيع أن تعرف الصدق أو تحترمه أو تريده أو تبحث عنه، أو يكون شوقاً أو أملاً من أشواقها أو آمالها. ولماذا تريد الجماهير الصدق أو تحترمه؟ ولماذا يصبح أحد آمالها أو أشواقها أو همومها؟

إنه أي الصدق لا يمكن أن ينفع الجماهير أو يصلحها أو يتلاءم معها أو

يرضيها عن نفسها، أو عن أربابها وأنبيائها وزعمائها وقادتها، أو عن ماضيها أو مستقبلها، أو عن آبائها وأبنائها، أو عما في مجيئها وبقائها وذهابها من منطق وكبرياء ومجد وأهداف عظمى، ومن تدبير بعيد الأعماق والذكاء والأخلاقية.

إنه للعذاب الشامل والقبح الشامل والتشويه الشامل أن تعجز الجماهير عن تصديق الأكاذيب أو عن قبول التفاسير الكاذبة لمعنى وجودها. كيف تريد الجماهير الصدق؟ ولماذا تريده؟ وماذا يعني الصدق عندها؟ ماذا يساوي؟ ولماذا يساوي؟ وهل يساوي؟ أعني لو كان ممكناً أن تعرفه أو تجده أن الجماهير حينما تقبل الصدق وتقتنع به أو لو قبلته واقتنعت به، لا تفعل ذلك لأنه صدق بل لأنه يتلاءم معها أو لأنه لم تجد سواه. إن الصدق لن يكون إلا تحريضاً للجماهير ضد رضاها عن نفسها وعن آلهتها وعن تاريخها وعن مستقبلها وعن أسلافها وعن أنبيائها ومعلميها، وعن أي شيء من واقعها واحتمالاتها وآمالها وتطلعاتها. إن الصدق يحولها إلى حرب ضد كل ذلك. إنه يصدمها في تفاؤلها وإيمانها وتقبلها وإعجابها... إنه يصدمها بنذالة ووحشية. إن التفاؤل أعظم وأنفع في حياة الجماهير ولحياتهم وآمالها وتطلعاتها. إن الصدق يحولها إلى حرب ضد كل ذلك. إنه يصدمها في تفاؤلها وإيمانها وتقبلها وإعجابها... إنه يصدمها بنذالة ووحشية. إن التفاؤل أعظم وأنفع في حياة الجماهير ولحياتهم من كل شيء، من كل الحقائق والمواهب الأخرى.

إن الصدق يرى الجماهير نفسها كما يريها الأشياء بوقاحة وفظاظة وجلافة.

إن الصدق كائن كالح متوقح بذيء عدواني. إن في الصدق كل منطق الهمجية وأخلاقها. إن البشر لم يكونوا أغبياء أو مخطئين أو ظالمين أو أنذالاً حينما أجمعوا في كل عصورهم ومجتمعاتهم على مقاومة الصدق وعلى رفض التعامل به أو معه.

إن أضعف الزعماء والقادة والمعلمين أخلاقاً، وأقساهم ضمائر ونيات، وأكثرهم سخفاً وبلادة، وأقلهم شهامة وحباً وذكاء، هم أكثرهم صدقاً. إن هؤلاء ـ أي أكثر الزعماء والقادة والمعلمين صدقاً ـ يتحولون إلى أكثر الوحوش والأعداء والأجلاف وحشية وعداوة وجلافة. إن الوحوش والأعداء والأجلاف هم الزعماء والقادة والمعلمون الذين يصدقون أو يريدون الصدق لأنفسهم أو للآخرين.

ولكن هل وجد في كل تاريخ الإنسانية واحد من هؤلاء الوحوش والأعداء والأجلاف؟ لقد كان هؤلاء يوجدون دائماً في كل التاريخ والمجتمعات بالتفاسير الأخرى الكثيرة. ولكن واحداً منهم لم يوجد بهذا التفسير. أي لم يوجد واحد، واحد فقط يصدق أو يريد الصدق لنفسه أو للآخرين. لقد كان الزعماء والأنبياء والقادة يرفضون دائماً أن يكونوا أجلافاً أو أعداء أو وحوشاً بهذا التفسير. لقد كانوا عاجزين عن أن يكونوا أجلافاً، أو وحوشاً أو أعداء على هذا المستوى، لهذا كانوا أبداً عاجزين عن أن يكونوا صادقين.

إن الجماهير لا بد أن تأخذ أو أن تؤمل، بل إنها لا بد أن تؤمل مهما أخذت. إن التأميل في الجماهير ليس بديل الأخذ أو تعويضاً عنه. إن التأميل فيها حاجة.

إن التأميل في الجماعات حالة من حالات الجوع. إنه سفر روحي. إنه شعر وغناء وفن من فنونها. إن الإنسان مهما كان بلا أسفار أو عاجزاً عن الأسفار أو ممنوعاً منها فلا بد أن يظل مسافراً سفراً واحداً. لا بد أن يظل مسافراً بروحه. لا بد أن يتجاوز بروحه وأمانيه.

إن الجماهير لو أسرت الإله وحولته بكل قوته وعبقريته إلى مصمم وصانع ومنتج لاحتياجاتها وشهواتها ولجميع شروطها، لظلت أيضاً مؤملة. إن التأميل في حياتها ليس إلا أسلوباً من أساليب الهرب من كينونتها والرفض

لها مهما كانت صيغها أي صيغ كينونتها.

إنها لهذا أبداً مؤملة. إنها لا تكون إلا كذلك مهما أخذت أو أعطيت، حتى ولو أخذت أو أعطيت الإله ليكون أسيراً ومملوكاً يصنع لها ما تشاء. إن كل أخذ وعطاء لن يكون شفاء من التأميل.

إن الآمال حتى ولو كانت كاذبة أو مستحيلة أو شريرة وعدوانية هي أنبل وأفضل وأصدق وأشمل وأخلد أنبياء الإنسان. إنه لمستحيل أن يعرف بالعلم أو بالتفكير أو بالأخلاق الفرق بين الآمال الطيبة والمعقولة والآمال الأخرى المضادة.

إن الآمال لا تساوي صدقها وكذبها بل تساوي قدرتها على أن تهب الحماس والروعة والنشوة وعجزها عن ذلك.

إن موهبة التأميل هذه في البشر لتصنع وتهيء دائماً أفضل وأقوى الاحتمالات والفرص لكي توجد وتيش وتنتصر أبشع وأضخم الأكاذيب والبلادات، وأغبى وأكذب الزعماء والقادة والمعلمين وسائر المتحدثين عما لا يرى أو يوجد. لقد كانت هذه الموهبة هي دائماً الدليل أو المعجزة الخارقة الدالة على صدق بنوة الزعماء والأنبياء والمعلمين وجميع المدعين، وعلى صدق زعاماتهم وتعاليمهم.

إذا كان من المشكوك فيه أن ترضى الجماهير عمن يعطونها فإنه لمحتوم ولو أحياناً أن ترضى عمن يغنون ويخطبون لها بالآمال الضالة التي لن تصبح عطاء ولا وجوداً. نعم، ولعل الآمال التي لا تصدق ولا تعطي هي أروع الآمال مذاقاً وسحراً وأطولها بقاء.

ما أجملك وأروعك أيتها الآمال الضالة. ما أقسى وأتفه الحياة والوجود وجميع الأشياء لولاك أيتها الآمال الضالة. ألست أقوى وأفضل الآمال أيتها الآمال الضالة؟ هل يوجد من يستطيعون أن يواجهوا الأشياء أو

الحياة أو أنفسهم بدونك؟ حتى الآلهة، لقد عاشت ومارست نفسها ووجودها تحت رحمتك وفضلك وعزائك وخداعك وإغرائك. أيتها الآمال الضالة.

لقد عاشت الآلهة الآمال الضالة وتعاملت بها أكثر مما عاشها الإنسان وأكثر مما تعامل بها.

هل استطاعت الآلهة أن تتعزى أو تسعد أو أن تتحمل كينونتها الرهيبة الحزينة إلا مؤملة أن يكون الإنسان لها وحدها، بل أن يكون كل المجد والأمر والقوة والصلاة لها دون أي ند أو منافس آخر؟ ماذا يبقى للآلهة من عزاء أو من ثمن أو من تعويض أو من أسباب السرور لولا آمالها الضالة في أن يكون له وحدها كل الإنسان بلا تقسيم؟

إن ضلالك أيتها الآمال لشدة إغراء فيك. إنه أي ضلالك الشديد لمستوى جمالك توهبينه وتهبينه. إن ضلال الآمال هو أقوى وأعظم مواهبها ومزاياها. إن ضلال الآمال لم يكن في أي يوم ضعفاً أو عيباً أو عاراً فيها أو هزيمة لها.

إن الزعماء والقادة والأنبياء والمعلمين الأغبياء والمرفوضين والذين لا يشتهيهم أحد ليسوا هم الذين لا يهبون الجماهير احتياجاتها أو لا يقودونها إليها، بل هم الذين لا يغرقونها في الآمال الضالة ـ هم الذين لا يستطيعون أن يحولوا احتياجاتهم إلى أناشيد وأديان ومذاهب وصلوات ونبوات وإلى كتب مقدسة، دون أن تستطيع التحول إلى واقع. ماذا يكون لو أن الحياة لم تبتكر الآمال الضالة، لو أنها لم تهب سوى الآمال الصادقة؟ هل تستطيع الآمال الصادقة أن تغطي أو تخفف قبح التشوهات أو التفاهات التي تغطيها أو تخفف قبحها الآمال الكاذبة؟ إن الآمال حينما تتحول إلى واقع تصبح شيئاً رديئاً أو دميماً أو صغيراً أو شيئاً لا سحر ولا إغراء ولا إعجاز ولا جمال ولا إقناع فيه. إن تحول الآمال إلى واقع نوع من الهزيمة والفضح والتشويه والهجاء لها. إن صدق الآمال عدوان عليها وتشويه لجمالها. إذن فالآمال الضالة الكاذبة التي لا تصدق هي أضخم وأشهر هدية يقدمها الإنسان إلى

نفسه. . . إن الواعدين الكاذبين ليبدون أحياناً أكثر عزاء وعطاء ومجاملة للجماهير من الواهبين لها، أو من الصادقين الفاعلين، أو من المحولين لآمالها المطلقة الضالة إلى واقعع متحدد متقيد مفتضح بكونه قد أصبح وقاعاً، أو من الذين يهبونها ويحددون ويضيقون أو يضعفون آمالها الضالة المنطلقة بلا ناه أو زاجر أو مروض، أو يحولونها إلى ارتياب في هذه الآمال الضالة المتمردة على جميع حدود وقيود الذكاء والوقار والترويض. إن أروع وأنبل ما في الآمال الضالة الكاذبة إنها بلا قيود من الذكاء أو الوقار. . . إن الفردوس الذي نوعد به ولا نجده أو قبل أن نجده لا بد أن يكون أكثر سحراً وجمالاً من الفردوس الذي نوعد به ونجده أو بعد أن نجده. أن دخولك الجنة التي يعدك بها أنبياؤك ومعلموك لهو أعظم عدوان عليك وعليها. ما أعظم إلهك الذي لن تراه ونبيك الذي لم تستمع إليه أو تلقه.

إن الجماهير قد تحس في أوقات جوعها وعجزها وبتجاربها الحزينة الأليمة أن الواقع الموجود أو المنتظر بكل حدوده ومستوياته واحتمالاته الطبيعية ـ أي قد تدرك أن الصدق بكل أشواطه وطاقاته عذاب لا يطاق، ودمامة لا يستطاع التحديق فيها، وتفاهة لا تحمل شيئاً من الإثارة أو العزاء، وضآلة لا تتراكض فيها الآمال. وحينئذ لا بد أن تفزع إلى الكذب وإلى الكاذبين لتنجو من عذاب الصدق ودمامته وتفاهته وضآلته ومن بروده وخموده وخموله ومن كل فنون الكآبات فيه.

ما أبشع كآبات الصدق وضآلاته ودمامته. ما أصبح طلعته أن لم يستتر بالزور، بالأكاذيب الضخمة المنوعة.

إن الجماهير حينئذ لا بد أن تفزع إلى الكذابين يخدعونها بلا أي قيد أو اشتراط أو أية وصاية من الذكاء أو الحياء أو الأخلاق أو التقوى أو المحاسبة أو الاحترام للنفس أو الخوف من التجهيل أو التأثيم. نعم، إن هؤلاء الكذابين يجيئون كنجدة وإغاثة مهما جاءوا كأعداء وكعدوان ولصوص.

إنها حينئذ قد تجد كل عزائها في هؤلاء الذين يجيئون متعاقبين عليها، بل متواصين عليها، ليعلموها الأكاذيب الدينية والمذهبية والقومية والتاريخية والوطنية والأخلاقية والأكاذيب من كل نوع وتحت أي اسم. وإنها حينئذ لن تتسامح في تشريد أو صلب كل من قد يجيئون ليصححوا لها كذابيها هؤلاء أو ليضعفوا من الحماس لأكاذيبهم. هل تعادي المجتمعات أحداً مثل معاداتها لمن يحاولون أن يصححوا أو يفسروا لها بصدق أنبياءها ومعليمها الخالدين؟

إن الناس لا يكذبون أو يريدون الكذب لأنهم أغبياء أو أشرار يريدون إيذاء الآخرين، أو إفساد ذكائهم، أو خديعتهم، أو يريدون تهديم العلاقات الطيبة بين الشيطان وصديقه الإنسان، أو بين الإله وأنبيائه أو بين السلطان ورعاياه. ولكنهم يفعلون ذلك أو يريدون ذلك أو يتقبلونه لأنهم يحاولون الهرب من شيء، أو امتلاك أو بلوغ شيء، أو لأنهم يكرهون شيئاً أو يخافون شيئاً.

هل يمكن أن يكذب من لا يكون محكوماً بشيء من ذلك. إن الكذب ليس موهبة أو شهوة ذاتية بل تعبير عن تصادم.

إن الكذب ليس هو الإخبار بغير الواقع كما يقول الأنبياء والمعلمون والمدرسون والواعظون. إن هذا هو الكذب في منطق الحشرة وسلوكها وأحاسيسها. إن هذا هو الكذب في أخلاق الطبيعة وأخلاق الأشياء.

لقد كان هؤلاء يعرفون الكذب ويفسرونه بمنطق ليس منطق الإنسان وبأخلاق ليست أخلاقه...

ولكن الكذب هو الإخبار عن الواقع أو عما في النفس تحت ظروف غير ملائمة. إن الكذب هو الإخبار عن الواقع بأسلوب محتج ناقد رافض.

إن الكذب ليس هو الإخبار بغير الواقع كما تقول التعاليم، وإنما الكذب في جميع تفاسيره هو الرفض للواقع، والاحتجاج عليه، والنقد له، والخجل أو الاشمئزاز منه. إن الكذب هو الأسلوب الأليم الحزين لرفض

الواقع وللاحتجاج عليه وللخجل والاشمئزاز والهرب والغضب منه.

إن الإخبار بغير الواقع لا يعني أو لا يساوي إلا الرفض أو الاحتجاج أو النقد أو الخجل والاشمئزاز من ذلك الواقع أو من ذلك الواقع ومن كل واقع آخر. إن الأخبار بغير الواقع ليس إخباراً بغير الواقع وإنما هو إعلان التناقض مع ذلك الواقع.

إن الكاذب مهما حكمنا عليه وضده يستحق منا الرثاء، وأحياناً يستحق الإعجاب، أكثر مما يستحق ذلك الصادق. إن الكاذب ليس إلا إنساناً يقول: أنا لا أطيق هذا الواقع، لا أطيق رؤيته ولا الصبر عليه بل ولا التصديق بوجوده بل ولا الحديث عنه كما هو، كما أراه وأعلمه.

إن الملوم إن كان يوجد من يستحق الملام ليس هو الكاذب، بل هو الكون، بل هو الكون الذي جاء ويجيء مناقضاً صادماً للإنسان، خارجاً بلا أي قدر من التهذيب أو الشهامة على جميع نماذجه ومستوياته الفكرية والنفسية والأخلاقية والمذهبية والدينية. إنه حينما يكذب ليس إلا مدافعاً عن نماذجه ومستوياته هذه. إنه ليس إلا غاضباً لها، رافضاً الخروج عليها، أو رافضاً الخروج عليها دون بكاء أو مقاومة، أو معلناً أن خروجه عليها ليس إلا خروجاً مكرهاً عليه محكوماً به من الخارج.

إن الكذب ليس إلا أسلوباً من أساليب البكاء والأنين والتمزق والصراخ من هول المشاهدة والممارسة والافتضاح. إنه نوع من إعلان التمرد والعصيان بأسلوب ما.

ولكن الكون نفسه أليس أيضاً يستحق الرثاء لأنه قد جاء ويجيء دائماً مناقضاً ومصادماً لنفسه وللإنسان ولجميع الكائنات التي تعيش فيه وتتعامل معه، ولأنه قد جاء ويجيء محكوماً عليه كما جاء وكما يجيء دون أن يستشار أو يختار ـ لأنه قد جاء ويجيء محكوماً عليه بمجيئه وبمصيره

وبجميع نماذجه ومستوياته وأخلاقه؟ أليست الحشرة التي تجوع فتأكل الحشرة الأخرى تستحق الرثاء الذي تستحقه الحشرة المأكولة؟ أليس الحجر الساقط محكوماً بسقوطه مثلما الحجر الآخر محكوم بالسقوط عليه؟

إن جميع التعاليم والفنون والآداب والأخلاق في جميع مستوياتها وتحت جميع ظروفها وأسبابها وتفاسيرها ليست إلا أساليب وألواناً مختلفة من أساليب وألوان الكذب، لأنها جميعاً ليست سوى تعبيرات عن الإنسان وعن همومه وآلامه واحتياجاته تحت ظروف غير ملائمة. إنها ليست سوى الإنسان واقعاً تحت ظروف مناقضة له، معبراً عن هذه الظروف بأسلوب ما.

إن هذا هو الكذب في كل معانيه وتفاسيره وأساليبه.

هل يمكن أن يكذب الإنسان، أو هل محتوم أن يكذب لو كان وحده بلا آخرين؟

إن المفروض أن الجواب لا بد أن يكون: كلا، إنه لن يكذب حينئذ. ولكني أظنه قد يكذب أو لا بد أن يكذب بأسلوب ما، على نفسه أو تحت حافز ما أو ضرورة ما. إنه حينئذ قد يتوهم وجود كائن آخر لكي يكذب به أو يكذب عليه أو يتعامل معه بالكذب.

إن الكذب ـ كما قد فسر ـ ليس سببه فقط هو التناقض مع الآخرين، أو الاستفظاع والرفض لما يعانون ويواجهون ويمارسون. إن السبب الأكبر والأقوى للكذب هو التناقض والتصادم مع الكون وبه، والاستنكار والاستقباح لأخلاقه ومنطقه وتفاسيره. إن سبب الكذب هو التناقض والاستقباح. وهل يمكن أن يكذب الإنسان لو جاء متناقضاً متصادماً دون أن يكون مستقبحاً مستنكراً رافضاً؟

وهل التناقض والتصادم بالآخرين إلا تعبير عن التناقض والتصادم بالكون؟ حتى التناقض أو التصادم الفكري أو الأخلاقي بالآخرين هل يكون

لولا التناقض والتصادم بالكون؟

أليست كل أخطاء الإنسان وآلامه ونقائصه هي التعبير الحاد أو التعبير الإنساني عن أخطاء الكون وعن آلامه ونقائصه، أو عن عنف إملاء الكون على الإنسان؟ هل يمكن أن يكون الكذب إلا تعبيراً عن إملاء ما؟ وهل يوجد أي إملاء خارج إملاء الكون؟ وهل يوجد أي كائن إلا وهو بكل نماذجه وأخلاقه أحد صيغ الإملاء الكوني؟

لقد احتاج الناس مجتمعين إلى أن يكذبوا على أنفسهم، أو لأنفسهم، أو ضد أنفسهم وكأنهم كائن واحد يكذب لنفسه أو على نفسه أو ضد نفسه أمام الآخرين أو في تعامله مع الآخرين أو لخداع الآخرين أو لإرضائهم.

لقد كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا يواجهون جميعاً الكون متناقضين معه. إنهم لم يكذبوا دائماً كأفراد متناقضين أو متنافسين أو متحاربين، بل لقد كذبوا أيضاً كفرد واحد يناقض أو ينافس أو يقاتل كائنات أخرى أو كائناً آخر.

إن البشر يقاتل ويخاف بعضهم بعضاً، ويقاتلون ويخافون أيضاً مجتمعين. وبنفس الأسلوبين أيضاً يكذبون.

إنه لا يكذب بعضهم على بعض فقط، بل ويكذبون مجتمعين على أنفسهم في مواجهتهم للكون المواجه لهم بتحد وعدوان ووقاحة وعجز دائم وكامل عن التفاهم والتوافق بل حتى عن التهادن معه. إن البشر إذن يواجهون ويمارسون نوعين من الكذب: كذب بعضهم على بعض، وكذبهم مجتمعين على أنفسهم أو لأنفسهم في مواجهتهم للكون المتحدي المناقض لهم. إنه إذن لو وجد إنسان واحد بدون أي آخرين أو احتمال آخرين لجاء هذا الإنسان الواحد، ولظل أيضاً متناقضاً مع الكون كل أساليب ومستويات وتعبيرات التناقض. ولكان محتوماً حينئذ أن يحتاج إلى الكذب على نفسه، لكي يقاوم أو يخفف أو يغطي أو يغالط أو ينافق هذا التناقض بينه وبين الطبيعة التي

تناقضه وتخاصمه وتخرج عليه وتسخر منه وتقاتله أقوى وأفظع وأكثر لؤماً مما يفعل جميع الآخرين، بل جميع الأعداء. لعله حينئذ يذهب يتصور آخرين حوله ليكذب عليهم ويكذبوا عليه ويكذب معهم ويكذب بهم.

نعم، إن كذب هذا الإنسان الواحد سيكون حينئذ بلا لغة أو بلغة أخرى. إن الكذب ليس لغة ولكن اللغة هي إحدى صيغ الإعلان عنه. إن اللغة هي آخر وأضعف أساليب الإعلان عن الكذب. بل إن الكذب باللغة قد يكون أسلوباً من أساليب مقاومة الكذب وإبطاله. لأن الكذب باللغة أسلوباً من أساليب الفضح للكذب، والتشويه له، والدعاية ضده، والإخبار عنه.

إن الكذب باللغة أسلوب من أساليب التحدث عن الخطة الشريرة المدبرة. إن الكاذبين جداً لا يكذبون باللغة، وإن الكاذبين باللغة ليسوا كاذبين جداً.

إن من كذب باللغة فقد طعن كذبه بالخطة أو بالتدبير أو بالنية أو بالواقع.

إن الذي يكذب باللغة هو إنسان يقاوم كذبه بأسلوب من أساليب المقاومة وإن لم يكن يدري أو يريد.

إن الطبيعة بلا لغة هي أكذب الكاذبين، بل هي كل الكاذبين، ومعلمتهم جميعاً، بل وآمرتهم وملزمتهم. إن الطبيعة تصنع في الناس ولهم الكذب بالأسلوب والإلزام اللذين تصنع بهما لهم وفيهم المخاوف والهموم والمجاعات والرؤية والسمع والمرض والموت والشيخوخة... إن أضعف وأسذج وأطيب الكاذبين هم الكاذبون باللغة. إن هؤلاء في التفسير للأشياء، وفي منطق ونيات الأشياء، ليسوا كاذبين، ولكنهم مقاومون للكذب، أو رافضون له، أو محتجون ليه، أو واقعون في قبضته، محكومون به.

إن هؤلاء مكذوب بهم إنهم مجعولون كذباً وموقع بهم الكذب. إنهم توقيع الكذب لا موقعوه.

ومع أن الطبيعة عاجزة عن أن تكذب كذباً دينياً أو مذهبياً أو أخلاقياً أو

قومياً أو وطنياً أو سياسياً كما يكذب الزعماء والأنبياء والمعلمون والسياسيون وكل البشر فإنها أي الطبيعة هي كل الكذب، ولك من يعلمه ويحرض عليه ويأمر به ويجعله التزاماً، بل يجعله منطقاً عالمياً، بل أخلاقاً عالمية.

إن كل الفنون والآداب والتعاليم والأديان والنظريات هي دائماً بحث بوسيلة ما عن حالة أو عن مستوى ما من مستويات الجمال أو الكمال أو التلاؤم المفقود المطلوب مع أشياء لا يمكن التلاؤم معها، ولا يمكن أن تكون جميلة أو كاملة. والكذب أيضاً هو بحث عن ذلك، هو بحث بأسلوب ما عن تلاؤم أو عن جمال أو كمال لا وجد له. أليس الكذب في كل حالاته رفضاً لما وجد، وبحثاً عما لم يوجد، أو ادعاء لذلك، أو تظاهراً به أو تمنياً له، أو تحويله إلى أمنية؟ أليس الكذب هو دائماً محاولة فرار مما لا يراد أو ينبغي أو يطاق؟ إنه لهذا قد يكون أكذب الناس هو أكثرهم وأقواهم بحثاً عن هذه الحالة أو عن هذا المستوى من حالات أو من مستويات الجمال أو الكمال أو التلاؤم المفقود المطلوب، وأكثرهم وأقواهم احتياجاً إلى ذلك وإحساساً به وبفقده. كما قد يكون أي أكذب الناس هو أقواهم وأكثرهم استقباحاً ورفضاً للنقائض والتنافر والدمامات، واحتجاجاً عليها، واشمئزازاً منها وإحساساً بقبحها ووقاحتها وبتحديها له ولكل نماذجه ومستوياته وتطلعاته.

إذن قد يكون أكذب الناس هو أتقى الناس وأنبلهم نفساً ومنطقاً ونية وشوقاً ورفضاً للدمامات.

إن الكاذب هو كائن يريد ثم لا يستطيع، ويرى ما يرفض أو ينكر، ثم لا يستطيع أن يزيل أو يقاوم أو يغير ويبدل. وحينئذ ماذا يصنع؟ إنه لا يستطيع أن يتقبل أو يغفر أو ينسى أو يعمى عن الرؤية، كما لا يستطيع أن يقهر. إنها ورطة. فكيف يواجهها؟

الصدق وقاحة وعدوان وتشويه ويأس وجحيم وقيد وعبودية وتحديد. أما الكذب فأدب وتهذيب ورحمة وشعر واحتلام وخيال وإطلاق وانطلاق

وحرية وجمال واختيار... وإن لم يكن الكذب كذلك فإنه على كل حال فرار أو محاولة فرار من الوقاحة والقسوة والتشوية والجحيم والقيد والعبودية والبذاءة ولو بالكلام والتعبير.

أليس محتوماً، أو أليس الأفضل حينئذ أن يكون كاذباً لا صادقاً؟ إذن أليس الذي يحاول أن يكذب هو إنسان يحاول أن يكون متحضراً وطيباً، وأن الذي يحاول أن يصدق هو إنسان يحاول أن يكون همجياً شريراً؟

إن الكاذب كالمخترع أو المكتشف أو العالم كلاهما يرفض ويتجاوز ولكن بأسلوبين مختلفين.

إن الكاذب هو إنسان يتحدث عما يريد ويتمنى ويحب وعما يشترط للأشياء وعلى الأشياء ولنفسه وعلى نفسه... إنه لا يتحدث عما يجد أو يرى أو يعلم أو يكون. إن الكاذب يتحدث عما في نفسه أي عن واقع في نفسه أو عن واقع نفسه. إنه حينما يقول: هذا الشيء موجود، وهو غير موجود، أو يقول: هذا الشيء جميل، وهو دميم، فإنه يريد في الحالتين أن يقول: أتمنى أن يكون ذلك الشيء كذلك، أو أشتهي أو أريد أن أتحدث عنه بأنه كذلك. إنه حتماً يتحدث عن نفسه لا عن الواقع الذي يراه أو يعلمه أو يجده. إنك حينما تكذب لإنسان أو على إنسان لا يمكن أن تكون معزولاً عما في نفسك. إذن فهل أنت كاذب؟ حتى سامعك، إنه يعرف أنك تتحدث عما في نفسك لا عن واقع خارجها. إن أي إنسان لا يستطيع أن يتحدث عن غير واقع وعن غير حالة نفسية إن أي حديث لا بد أن يكون تعبيراً عن واقع ما بأسلوب ما، أو أن يكون تعبيراً ما عن حالة ما نفسية بأسلوب ما. إن كل حديث لا بد أن يكون عن واقع ما إما داخل النفس وخارجها، وإما داخلها فقط. إذن كيف يمكن أن يكون أي حديث كذباً؟

إن الكاذب إذن ليس كاذباً مهما كان ما يتحدث عنه غير واقع في الخارج، لأن حتماً لا بد أن يكون حينئذ واقعاً في الداخل أي في داخل النفس. إن من

قال للدمامة أو مشيراً إلى الدمامة: هذا جمال فهو حتماً يعني أن في نفسه شيئاً أي رفضاً أو احتجاجاً أو استبشاعاً أو خوفاً أو تمنياً أو محاولة ما.

أيها الكاذب... كم أنت خليق بالرثاء والاحترام. كم يستحق موقفك ونياتك من التمجيد والعطف الصادق. إنك أسلوب فداء وعزاء. إنك صيغة مثيرة من صيغ الطموح. إنك إنسان يعشق نجماً عالياً إنك تعشق نجماً لا تستطيع الصعود إليه، وحينئذ تحاول الصعوب إليه بالمغازلة والتمني، وبالنظر وبالإعجاب.

إن الكذب مغازلة للأشياء البعيدة أو غير الموجودة بالأماني والتحديق وبالحب المتلّهف المصدوم.

إنك أيها الكاذب كائن يضع شروطاً للأشياء ولنفسه، وعلى الأشياء وعلى نفسه. إنك لا تتقبل الأشياء أو تتقبل نفسك كما هي بل بشروط. وأنت لا تجد هذه الشروط. وحينئذ لا بد تصبح الكائن الذي ندعوه كاذباً لأنك تحاول أن تفترض أو أن تدعي أو أن تجد شروطاً لما لا شروط فيه أو له.

إن من لا يشترط أية شروط لنفسه أو للأشياء أو للآخرين لا يمكن أن يكذب أو أن يحتاج إلى الكذب.

إنك تحاول أن ترضى عن نفسك وعن الأشياء وعن الآخرين، وأن ترضي نفسك وترضي الأشياء وترضي الآخرين. فلا تجد هنا الذي تحاول أو تريد... لا تجد ما ترضاه أو ما ترضي عنه أو ما ترضي به من تريد إرضاءهم. وإنك وهاب لا يجد ما يهبه، ونبـي لا يجد الإله الذي يرضى عنه ليقدمه إلى السوق.

إنك حينئذ تذهب تقول حيث لا تستطيع أن تفعل أو أن تجد. إنك حينئذ تذهب تتعذب لتجد هذا الرضا أو هذا الإرضاء بالتعذيب والمعاناة.

إنك تتعذب عذاباً نبيلاً. إنك تتذب عذاباً لا يتعذبه سوى الإنسان. إنه عذاب الإنسان الأسمى.

إنك تذهب تقول ما يرضي أو ما يراد أو ما يجب أو ما هو الأفضل أو الأتقى أو الأذكى أو الأعدل، حيث لا تستطيع أن تفعل ذلك أو أن تجده.

إنك حينئذ تذهب تتحدث عن الشروط التي تتمناها لا عن الشروط التي تجدها أو تحياها. إنك الكائن الذي يريد للأشياء وللناس من الشروط الجيدة ما لم ترد لهم أو لها الآلهة أو الطبيعة، ويرفض لهم ولها من السوء ما لم ترفض لهم أو لها الآلهة أو الطبيعة.

إنك حينئذ إنسان نصفه كامل بدل أن تكون إنساناً كله رديء. إنك حينئذ إنسان لغته ونياته وتمنياته فاضلة ومهذبة وملائمة، بينما حقيقته رديئة، أو بينما الحقيقة الموجودة رديئة، بدل أن تكون إنساناً لغته ونياته وتمنياته غير مهذبة وغير فاضلة ولا ملائمة، بينما حقيقته رديئة، أو بينما الحقيقة الموجودة كذلك أيضاً رديئة.

إنك حينئذ كائن شروطه جيدة بينما واقعه وقدرته غير ذلك بدل أن يكون واقعه وشروطه غير ذلك.

إنك حينئذ تتحول إلى اعتذار، أو إلى استغفار، أو إلى تخفيف من القبح الذي لا تستطيع إزالته، أو لا يستطيع أحد إزالته. إنك تحاول أن تكون ذلك. إنك تحاول أن تكون كفارة عن ذنوب الآلهة وعن ذنوب الطبيعة وعن ذنوب الإنسان.

إن الشيء الرديء أو الذميم أو المنكر ليس هو الكذب أو الكاذب، بل هو الذي يجعل الكذب ضرورة أو مزية أو مجداً أو انتصاراً أو تفوقاً أو نجاة ـ أو يجعله زعامة أو نبوة أو ديناً أو أخلاقاً وتقوى. إن الذنب ليس هو أن تنكر أو تشمئز أو تستقبح، ولكن الذنب هو أن يوجد ما يصنع الإنكار والاستقباح والاشمئزاز.

إنك حينما تقول عن الدمامة أو الظلم إنهما جمال وعدل فالسوء أو

فالذنب في ذلك هو وجود الدمامة والظلم، ووجود الظروف التي أوجدتهما، وأيضاً وجود الظروف التي جعلتك تقول ذلك، أو حكمت عليك بقوله، أو جعلتك تستفيد من قوله، أو تستريح أو تأمن به أي بقوله. ولا يمكن أن يكون السوء أو الذنب في قوله. إنك حينما تقول أنا خائف أو جبان أو منافق أو ضعيف وأنت كذلك فإن ذنبك إن كان لك ذنب لن يكون في قولك بل في كونك كذلك أو فمين جعلك كذلك أو في الظروف والطبيعة التي جعلتك كذلك.

إن الزعيم أو النبـي أو المعلم الذي يكذب تحت الظروف التي جعلته يفعل ذلك نرثي له ونقاومه، كما نرثي للحيوان المفترس وللحشرة السامة البذيئة مع مقاومتنا لهما ـ أعني لو كنا نقاوم أو نرفض الكذب أو الكاذب.

إن الزعيم أو النبـي أو المعلم الذي يكذب تحت ظروف الكذب ليس إلا كالذي يبكي تحت ظروف البكاء.

إن الظروف أو الحوافز أو الأسباب التي تجعل مصدق الكذب يصدقه ليست أنبل أو أتقى أو أذكى من الظروف أو الأسباب أو الحوافز التي تجعل قائل الكذب يقوله.

أيهما الكاذب، أو أيهما أكثر كذباً: الذي يكذب أم الذي يصدقه.

أيهما أكثر خديعة للآخر وعدواناً عليه؟ أيهما أكثر فجوراً وجريرة؟

أيهما الكاذب أو المذنب: الوجه الدميم أم الذي يقول عن هذا الوجه: إنه جميل، رحمة أو مجاملة أو تحرجاً أو تمنياً؟ وهل أذنب أو كذب واحد منهما؟

أيهما الخاسر أو المتعذب أو المتشوه أكثر: النبـي أو الزعيم الذي يكذب للمجتمع وعليه أم المجتمع الذي يستقبل ذلك ويرحب به ويهتف له، بل ويحتاج إليه ويحيا به؟

أيهما أكثر براً بالآخر وإحساناً إليه وإعطاء له؟ أيهما أكثر دعوة للآخر؟

أيهما النبـي أو الزعيم؟ أيهما التابع؟

أيهما الملقي للخطبة: الصاعد فوق المنبر يلهث ويعرق ويكذب ويهرج ويتشوه أم الجالسون تحته، يوحون إليه بالمزيد من الكذب والتهريج واللهاث والتشوه والغواية والسقوط والافتضاح... يهتفون ويصلون ويصرخون ويبكون ويطالبون ويجنون إعجاباً وحباً وإيماناً وشكراً وثناء؟

أيهما أكثر إفساداً للآخر: تعاليم النبـي أو الزعيم أو الخطيب وأكاذيبه أم أيمان الجماهير وهتافها وضعفها وبلادتها؟ أليس المستمع إلى القصيدة المنافقة والجازي عليها مشاركاً في صنعها أو هو صانعها؟ أليس متقبل المديح هو الخالق لأخلاق المادح والمفسد له؟

هل الجماهير ماكرة أم بليدة؟ هل هي مخدوعة أم خادعة؟ هل آمنت واتبعت بلادة وانخداعاً أم خبثاً ونفعية؟ هل يوجد هنا خبث أو خداع أو بلادة؟

هل هي ضحية أم قاتلة؟ هل هي صانعة الكذب أم واقعة فيه؟

أيهما العاشق للآخر: السوط أم الظهر؟ أيهما الداعي وأيهما المستجيب: الجسم أم المرض؟

هل الكذب غواية أم ضرورة؟ هل هو عدوان وذنب ودمامة وسقوط أم هو مقاومة أو مواجهة للعدوان وللدمامات وللذنوب وللسقوط؟

أهل الكذب هجوم أم دفاع؟ هل هو فجور أم تقوى؟ هل هو تمجيد للإله أو للسلطان أم هجاء له؟

وهل يوجد صدق وكذب، أم يوجد واقع لئيم كريه يشتبك وضده المواجهون له والمحكوم عليه به بكل أساليب الاشتباك المختلفة المتناقضة، وبكل الأسلحة التي قد يسمى بعضها صدقاً وقد يسمى بعضها كذاباً؟

أليس الاختلاف بين ما يدعى صدقاً وما يدعى كذباً لا يساوي أكثر من

الاختلاف بين سلاح وسلاح، أو بين أسلوب قتال وأسلوب آخر في معركة واحدة أو في معارك مختلفة ومتعددة؟

أليس الصادق والكاذب، أو من يحسب صادقاً ومن يحسب كاذباً ـ أليسا يقاتلان في معركة واحدة، بنية واحدة، ضد عدو واحد، لأهداف واحدة، بسلاحين مختلفين، أو يبدوان مختلفين، أو يظنان كذلك؟ أليس الصادق والكاذب كلاهما صادق أو كلاهما كاذب أو كلاهما صادق وكاذب أو كلاهما لا صادق ولا كاذب أو صادق وكاذب؟

* * *

أجل. إن في الكذب كل معاني الدفاع عن الإله بقدر ما فيه من معاني الدفاع عن السلطان أو عن الوجه الدميم، أو فيه أي في الكذب كل نيات هذا الدفاع، أو محاولاته، أو صيغه وأساليبه ونتائجه وتفاسيره، وهل يوجد كائن يحتاج إلى أن يدافع وإلى أن يعتذر عنه مثل الإله؟ ولكن هل يمكن أن يجدي أو يقبل أي دفاع أو اعتذار عنه؟

إن الكاذب قد يكون إنساناً يحاول أن يغفر للإله، أو يستغفر له، أو أن يستر عليه، أو أن يرفق به. إنه حينما يكذب قد يقصد، أو قد يعني ذلك دون أن يقصد التغطية على ما في منطق الإله وعلى ما في أخلاقه وفنونه وشهواته وأعماله من ضعف وأخطاء وعبث ودمامات وقسوة.

وهل الكاذب حينما يكذب لهذا الغرض يقصد أن يرحم الإله ويرفق به أم أن يرحم نفسه ويرفق بها بالقسوة على الإله؟

وكم هي صعبة، أو كم هي مستحيلة الانتصار هذه المحاولة ـ محاولة التغطية على وجه الإله، أو على يديه، أو على ضميره، أو على أخلاقه، أو على بصماته. . . كم هي صعبة أو كم هي مستحيلة الإقناع هذه المحاولة؟

لعل التفسير الكامل لقضية الكذب: إن الإنسان قد رأى الله، رآه في

الأشياء، فوجده شيئاً لا يطاق رؤية أو تفسيراً أو أخلاقاً أو منطقاً أو موهبة. وجده شيئاً لا يطاق لجسامة وشمول ذنوبه وعاهاته ودماماته، فذهب يكذب له. لقد ذهب يكذب للإله ليجعله شيئاً يطاق. لقد ذهب يستغفر ويغفر للإله. ذهب يرفق به ويستر عليه، بأن يدعى الجمال والكمال والذكاء والرحمة والمنطقة والضخامة والحب والصدق والتدبير والتفاؤل حيث لا شيء من ذلك. كما ذهب ينفي وجود النقيض حيث يوجد كل هذا النقيض. لقد ذهب يفعل ذلك لكي يستطيع أن يرى الإله جميلاً لكي يستطيع أن يرى الآلام والتشوهات والمظالم التي يوقعها به جميلة بل رحيمة بل ذكية بل عبقرية.

ألست حينما تقول: الكون جميل أو منطقي أو رحيم أو صديق، تدافع عن الإله، وتغفر وتستغفر له وتستر عليه، إذا كنت تؤمن به ـ أو تدافع عن الطبيعة، وتغفر وتستغفر لها وتستر عليها، إذا كنت تؤمن بها؟ لقد كان الإنسان في كل التاريخ قصة دفاع شامل عن الأرباب والسلاطين والآباء والأديان والمذاهب... عن كل الدمامات والتشوهات والآلام والنقائص.

إن في الكذب إذن كل معاني المحاباة للإله، كما أن في الصدق كل معاني الهجوم والقسوة عليه. إنها كالمحاباة للأبناء حينما يمدحون أو يوصفون بنقيض ما فيهم. إنها كالمحاباة للسلطان. وهل كان الإله بهذه المحاباة يحابى أم يحقر ويهان ويشوه ويظلم؟ هل كان يحابى أم يحابى عليه؟

هل يمكن أن يطاق الإله أو أن يغفر له مع الصدق؟

هل يمكن أن يطاق أي شيء أو أن يغفر له لولا الكذب ـ لولا الكذب بكل أنواعه؟

وهل استطاع الكذب أن يصوغ أي جمال في وجوه الدمامات الشاملة؟

كيفَ رَأته
كــلّ العُقــول

«. . . كيف أمكن أن يتفق الناس الكثيرون جداً المختلفون المتفاوتون جداً في جميع مستوياتهم وظروفهم العقلية والثقافية والعلمية والنفسية الأخلاقية والتاريخية والميلادية بل وفي أهوائهم وهمومهم ومصالحهم ومواجهاتهم وتجاربهم؟ كيف أمكن أن يتفق كل هؤلاء على الاقتناع بإله واحد أو بنبي واحد أو بزعيم أو بمذهب أو دين واحد أو بأعداد هائلة من المعتقدات المتنافرة المتنافية المتناقضة البليدة الهمجية التي ترفض كل العقول منطقها وترفض كل العيون دمامتها وترفض كل الأخلاق والحضارات وحشيتها؟ كيف أمكن أن ترى عيون كل هؤلاء الناس هذا الإله أو هذا النبي أو هذا الزعيم أو هذا القديس أو هذا البطل أو هذا الدين أو هذا المذهب بكل هذه المزايا والأخلاق والتفوق والقوة والمجد والخلود؟ كيف أمكن أن يروه جميعاً نفس الرؤية الواحدة؟ كيف توحدت كل عيونهم في عين واحدة وعقولهم في عقل واحد ونماذجهم في نموذج واحد؟ لقد توحدوا في أيمانهم ورؤاهم لأنهم لا بد أن يتوحدوا في مواقفهم وسلوكهم، ولم يتوحدوا في مواقفهم وسلوكهم لأنهم متوحدون في أيمانهم أو رؤاهم. . .».

* * *

أنت محكوم عليك بأن تعيش مع الآخرين، بل في الآخرين، وكما يعيش الآخرون. إذن أنت مقضي عليك بالبحث عن التوافق معهم وبالتزام

هذا التوافق في جميع نماذجه وأساليبه المختلفة، أي في السلوك وفي التفكير وفي الايمان والاقتناع والإعجاب، وفي الرفض والاستنكار، بل وفي البغض لأنك محكوم عليك بالبحث عن التوفيق بين أفكارك ونظرياتك وبين ظروف حياتك وتصرفاتك، بل محكوم عليك بالتزام وتحقيق هذا التوفيق. لأن الشقاق بين هذا وهذا يعذبك وقد يفضحك أحياناً.

إن خروجك في سلوكك على المجتمع شيء لا تستطيعه، ولعلك أحياناً لا تستطيع إرادته. وإن خروجك في فكرتك أو في مذهبك أو في اعتقادك على سلوكك شيء يشقيك ويؤنبك، وقد يهجوك ويحولك إلى متهم.

إنه لمأزق قد حكم عليك بمواجهته. لقد واجهته باحثاً عن الراحة لا عن الصدق، وبالاستسلام لا بالمقاومة. لقد واجهت هذا المأزق كما كان ينتظر منك ومن كل من كان في موقفك أن يواجهه.

إنك لا تعتقد ما يعتقده الناس من أديان أو مذاهب أو تعاليم أو أخلاق لأنك مقتنع به أو فاهم له أو حتى مفكر فيه أو متصور أو محترم له، بل لأنك محكوم عليك بالتلاؤم معهم في سلوكهم وحماقاتهم وفي عبادتهم لأوثانهم. لقد فرضت عليك الحاجة إلى التلاؤم السلوكي الحاجة إلى التلاؤم الفكري أو الاعتقادي أو المذهبي. لقد اعتقدت ما اعتقد الآخرون، لأنه محكوم عليك أن تفعل ما يفعلون أو أن تبدو كما يبدون. إنك لم تتظاهر أو تنافق فقط بل لقد اعتقدت من داخلك. لقد عاش الآخرون في عقرك كما عاشوا في سلوكك ومواقفك.

لقد آمنت بجمال الوثن وبألوهيته، وزعمت ذلك لأنه قد حكم عليك بالسجود له. لقد كان ذلك أكثر راحة وأمناً لك وتوافقاً ذاتياً من أن تسجد له مع اقتناعك وإعلانك بأنه لا جمال فيه ولا ألوهية له.

لقد كان الإيمان من الداخل يهبك الراحة والرضا عن النفس أكثر مما يهبك ذلك النفاق.

لقد أدركت أن من الصعب أو من المستحيل أو من القتل أو من العذاب أو الهوان أو الضياع والمطاردة الخروج على سلوك الجماعة أو على السلوك المفروض عليك، لهذا أدركت أن من التشويه والتهديد والتوبيخ لك أن تكون أفكارك أو مذهبك أو عقائدك خارجة على السلوك الذي لا تستطيع الخروج عليه.

لقد اضطررت إلى التوفيق بين آرائك وسلوكك، أي بين ذاتك وذاتك، أو بين ذاتك ورؤيتك لذاتك، أو بين ما يراه الناس منك وما تراه أن تمن نفسك. لقد كان معنى هذا أن تفكر تفكير الجماعة، وأن ترى بعيونها، وأن تفسر وتؤمن بمنطقها إذ لم يكن بد من أن تسلك سلوكها.

إنك إذا كنت ممنوعًا من رؤية الأشياء أو من رؤية أي شيء فإن المعقول لك ومنك حينئذ أن تغلق عينيك بل أن تفقأهما.

إن العيش والتوافق مع الآخرين لا بد أن يعني فقوء العينين أو إغلاقهما.

إنه لا يوجد من لم يفقأوا عيونهم أو يغلقوها. إنه لم يوجد من لا يحتاجون إلى ذلك. وإنك إذا كنت لا تستطيع أن تنقد أو ترفض، ولا تستطيع أن تؤمن أو تقبل فإن المنطق حينئذ ألا تحاول أن تفكر أو تفهم.

وإنك إذا كنت لا تستطيع إلا أن تصلي للطغيان في جميع معابده العامة فإن المريح الملائم لك حينئذ والأكثر ستراً لعارك وهوانك، وتخفيفاً من تعذيب أخلاقك لك ومن احتجاجها عليك، هو أن تذهب تحاول البحث عن أسباب الاقتناع بمزايا الطغيان، بمزاياه المذهبية أو الدينية أو القومية أو الوطنية أو الإنسانية، وأن تجد هذه الأسباب المقنعة. إن عارك المحول إلى مذهب أو دين أو نظام تؤمن به قد يكون أفل تعذيبًا لك من عارك بلا دين أو مذهب.

إنك تحت الظروف المحرضة قد تنافق وتستطيع أن تنافق، ولا بد أن تنافق ولو أحياناً. وهل يوجد في الناس من لا ينافقون أو من يستطيعون ألا

ينافقوا؟ ولكن النفاق ليس نشوة روحية أو مجداً روحياً. إنه ليس استمتاعاً أو انتصاراً أو مجداً من أي نوع. ولكنه أي النفاق تعذيب وتشويه ومعاناة باهظة. وقد يكون أسلوباً من أساليب التضحية أو الفداء أو النضال الشاق. قد يكون أسلوباً من أساليب البكاء أو من أساليب الشتم للذات. قد يكون المنافق إنساناً يبكي نفسه ويهجوها بأقسى الأساليب وأشدها حزناً ومرارة.

لعل المنافق ليس إلا إنساناً يعاقب نفسه وذكاءه وضميره وأخلاقه ويقاتلها ويتحداها وينشق عليها. لعله يرثيها بصدق وقداسة ودموع فيها كل الأحزان.

إن المنافق قد يكون مظلوماً ومعتدى عليه ومضطهداً وفدائياً وإنسانياً مهما بدا غير ذلك أو نقيض ذلك. هل يوجد أحق بالرثاء أو الإعجاب أو الحب من إنسان لا يستطيع أن يقتنع ثم لا يستطيع أو لا يجرؤ أو لا يقسو ليقول إنه غير مقتنع؟

لهذا كان من الأسهل عليك والأرفق بكم ـ ولو أحياناً ـ أن تخضع منطقك لسلوكك أو لموقفك المفروض عليك بديل أن تنافق وأن تقاسي كل أهوال النفاق وهوانه وحقاراته وتهديداته واحتمالات افتضاحه أو افتضاحك به. إن المنافق ليس إلا إنساناً يبكي ويصلي مهما بدا يغني ويضحك ويعصي. إنه يتعذب مثل شهيد. . .

إن توحد مذهب المجتمع أو توحد دينه أو إلهه أو زعامته أو تعاليمه وتقاليده لا يؤكد حقيقة فكرية، بل يؤكد سلوكاً جماعياً محتوماً أو مفروضاً. إن هذا التوحد المثير يؤكد أننا لا بد أن نكون أدوات مخلوقة مسحوقة في الجهاز الكبير الرهيب، أي أن نكون بلا حرية مهما كانت الحريات موجودة ومشروعة ومنادى بها وممارسة، ومباحة، ومعروضة في جميع الأسواق والمعابد، وفي جميع القوانين، ومن فوق جميع الأجهزة والمنابر، بلا أي منع أو محاسبة. إننا لا نعيش الحرية بقدر ما تكون موجودة أو مبذولة أو مطلوبة بل بقدر ما نستطيعها أو نريدها أو نسعد بها، إن الحرية ليست دائماً ربحاً أو شهوة.

إن حرية أي إنسان في المجتمع أمام إملاء المجتمع لا تساوي أكثر من حربة أي عضو من أعضاء الجسم في الجسم وأمام إملاء الجسم وضغوط عليه. إنها حرية قانونية أو افتراضية فقط. إن هذه الحرية ليست هي كل الحرية ولا أقوى أو أفضل أنواع الحرية. إنها كحرية الجسم في ألا يشيخ أو يمرض أو يضعف أو يموت.

إن عقل الإنسان وحريته وشجاعته مسحوقة ومهانة ومهزومة تحت وقع وإملاء هذا الجهاز الرهيب. إن ضرورة التوافق أو التوحد مع الآخرين أو مع المجتمع هي أقوى وأشمل وأخلد وأشهر الأعداء لحرية الإنسان.

إنهم ليسوا الطغاة هم أقوى من يسلبوننا الحرية. إن الطغاة ليسوا سوى عمل صغير رديء في الجهاز الضخم الذي يأكل حرياتنا.

إن التوحد أو التوافق في أية فكرة أو سلوك لا يعني فهماً موحداً ولا مستوى موحداً أو حتى متقارباً من مستويات الذكاء أو عمق الحساسية أو من مستويات القدرة على الرؤية أو على النظافة والنزاهة والمقاومة أمام الحقائق والأحداث، أو أمام المشهد أو الموقف الواحد. إن المتوحدين أو المتوافقين ليسوا متوحدين أو متوافقين في تفاسيرهم أكثر من المختلفين المتنازعين المتقاتلين.

إن هذا التوحد أو التوافق إنما يعني أن حاجة الآحاد إلى التوحد والتلاؤم في سلوكهم ومواقفهم هي التي تصوغ أفكارهم وعقائدهم وتوحدها. إنه يعني أن عمل الناس هو الذي يصن مذاهبهم وأديانهم وتعاليمهم الموحدة. إنه يعني أن ضغوط المجتمع على آحاده هي التي تصوغهم صياغاتهم المذهبية والدينية والتعليمية والسلوكية وجميع صياغاتهم.

إن البشر ليسوا وحدات مفروضاً عليها أو مطلوباً منها أن تتوحد في سلوكها وفي صيغها ومواقفها الاجتماعية لأنها وحدات مفروض عليها أن

تتوحد في اقتناعاتها العقلية. ولكنهم وحدات مفروض عليها أن تتوحد في اقتناعاتها العقلية لأنها وحدات مفروض عليها أن تتوحد في سلوكها وفي صيغها الاجتماعية. إنهم مستعبدو العقول والعقائد لأنهم مستعبدو الصيغ والسلوك والمواقف والأخلاق.

إن البشر وحدات لها سلوك وصيغ اجتماعية تتحول إلى صيغ فكرية ومذهبية ودينية وتعليمية، وليسوا وحدات لها اقتناعات عقلية أو مذهبية أو دينية أو تعليمية. إن الاقتناعات العقلية والمذهبية والدينية والتعليمية ليست مأخوذة من ذاتها ولا موجودة من أجل ذاتها أو في ذاتها.

* * *

إنه لصعب جداً تصور هذا. كيف أمكن أن يحدث هذا الذي يصعب تصوره، بل أن يصبح هذا الذي يصعب تصوره هو الذي يحدث دون منازع أو بديل؟ كيف حدث أن هذا الذي يصعب تصوره هو الذي يحدث دائماً في كل التاريخ وفي كل المجمعات؟

كيف أمكن أن يتفق كل هؤلاء الناس المختلفين المتفاوتين جداً في جميع مستوياتهم وظروفهم العقلية والثقافية والعلمية والنفسية والأخلاقية والميلادية والتاريخية، بل وفي أهوائهم ومصالحهم وهمومهم وتجاربهم ومواجهاتهم؟

نعم، كيف أمكن أن يتفق جميع هؤلاء على الاقتناع بإله واحد أو بنبي واحد أو بزعيم واحد أو بمذهب أو دين واحد، أو بأعداد هائلة من المعتقدات المتنافرة المتنافية المتناقضة البليدة الهمجية التي ترفض منطقها كل العقول، وترفض دماماتها كل العيون، وترفض وحشيتها وبذاءتها كل الأخلاق؟ كيف أمكن أن يتسع نعش واحد أو قبر واحد لتوضع فيه كل الجثث في وقت واحد وحالة واحدة؟ كيف أمكن أن يحتلم كل الناس بهذه الذات الواحدة، بهذا الأسلوب الواحد، في هذه الليلة الواحدة؟

كيف أمكن أن ترى عيون كل هؤلاء الناس هذا الإله أو هذا النبي أو

هذا الزعيم أو هذا القديس أو هذا البطل أو هذا الدين أو هذا المذهب بكل هذه المزايا والمواهب والأخلاق والذكاء والصدق والخلود والتفوق والقوة والمجد؟ كيف أمكن أن يروه جميعاً نفس الرؤية الواحدة كيف توحدت عيونهم في عين واحدة؟

كيف أمكن أن يحدث هذا، أن يحدث هذا الذي يصعب تصوره؟

من الممكن أن يقال إنهم اتفقوا على ذلك بالتلقين. وحتماً لقد تلقوا ذلك تلقيناً. وفي كل التاريخ كان التلقين أقوى وأذكى وسائل الإقناع. إنه أقوى وأذكى من كل منطق. إن البشر لم يجدوا أو يواجهوا منطقاً له العالمية التي لمنطق التلقين

لقد كان التلقين سلاحاً لا مثيل له بين الأسلحة. إنه سلاح يطلق على كل إنسان، ويصيب كل إنسان، ويستسلم له كل إنسان. لقد كان التلقين هو السلاح السري الذي صن أمجاد وانتصارات جميع الأنبياء والزعماء والدعاة الماكرين.

ولكن كيف امتلك التلقين كل هذه القوة الخارقة؟ هل كان يمكن أن يكون له كل هذا الجبروت الإملائي لولا قوة السلوك الجماعي وما له من طغيان وسلطان له كل جبروت الإملاء والانتصار؟

لماذا احتاجت المجتمعات إلى التلقين وابتكرته ومارسته؟ ولماذا جاء مقبولاً وقوياً في جميع المجتمعات؟

هل يمكن أن يقنع التلقين العقول، أو أن يفهم الملقنون ما يلقنون لولا قوة الإملاء في سلوك الجماعة والمجتمع؟ وهل الملقنون في مستوى عقلي أو علمي أو ثقافي واحد لكي يتساووا في الفهم والاقتناع؟

إذن كيف تقبلوا التلقين وتساووا في تقبله؟ ولماذا جاء التلقين، وجاء بهذه الصيغة دون غيرها؟

إن التلقين وصيغته ليسا إلا بحثاً عن سلوك ما بصيغة ما، وليسا إلا تعبيراً عن هذا السلوك وعن صيغته.

إنهم لم يتقبلوا التلقين إلا بقانون الخضوع لسلوك الجماعة، وبقانون الحاجة إلى التلاؤم والتوافق مع الجماعة.

إن قوة التلقين ليست إلا تعبيراً عن قوة الحاجة إلى التلاؤم والتوحد مع الجماعة في تفاهاتها.

إنه لمحتوم أن نختلف ونتفاوت وبل ونتناقض في فهم وتفسير وتقبل ما نلقن لو كنا نتلقى آلهتنا ومذاهبنا وعقائدنا عن التلقين وبالتلقين وحده، لا بإملاء سلوك المجتمع علينا ولا عن هذا الإملاء.

إن الإنسان جماعي السلوك والمواقف والحماقات والفضائح. لهذا كان محتوماً أن يكون جماعي الآلهة والأنبياء والزعماء والمذاهب والأديان والغباوات. إن قيمة جماعية الغباء لا تساوي أكثر من قيمة جماعية السلوك والمواقف. إن الغباء الذي تؤمن به الجماعة يتحول إلى قيمة لأنه يتحول إلى تفسير وتسويغ وتمجيد للسلوك الجماعي الغبي أو العدواني أو الفاضح أو التافه.

إننا محتاجون إلى أن تكون صيغة واحدة في معاداتنا للآخرين وفي حقدنا عليهم وفي توحيد مواقفنا منهم وفي قوة أصواتنا في سبهم واتهامهم، لهذا كنا محتاجين إلى أن نكون منطقاً واحداً في تفسيرنا للإله أو للمذهب أو للنظام الذي سوف نفعل باسمه.

إن جماعية الإنسان هي التي أقنعته وتظل تقنعه دائماً بآلهته وأنبيائه وزعمائه وبأديانه ومذاهبه وتاريخه وتقاليده وتعاليمه، وليس الذي أقنعه ويقنعه هو ما رأى أو علم أو جرب في وجوه أو في عقول أو في أخلاق وضمائر ومواهب أربابه وأنبيائه وزعمائه وتاريخه وأديانه ومذاهبه وتقاليده

وتعاليمه من جمال وصدق وذكاء ونظافة وعبقرية وصداقة وحب ووضوح وإشراق. إن هذه الجماعية هي التي أقنعته بذلك، وهي أيضاً التي وحدته في فهمه وفي تفسيره لذلك.

إن هذه الجماعية الإنسانية هي أقدر على الإقناع وعلى صياغة المنطق من جميع الآلهة والأنبياء والزعماء والأديان والمذاهب والتعاليم، ومن جميع ما في الكتب المنزلة من جبروت وإرهاب وفصاحة ووعد ووعيد، ومن تهاويل وأهوال، ومن نيران وجنات وسماوات، ومن آلهة لا مثيل لها في الشراسة والقوة والجوع والطغيان والأنانية والكبرياء ووحشية الضمير والأخلاق. إن جماعية السلوك هي التي سوغت وتسوغ دائماً للبشر حماقاتهم الكبرى الرهيبة. وليس منطقهم الضال أو المخدوع أو الكاذب المنافق هو الذي سوغ لهم ذلك. إنه لولا جماعية السلوك وما لها من إملاء لما استطاع أي منطق ولا أي شيء أن يجعلهم يجرؤون على خوض حروبهم.

إن الإنسان ليس كائناً يفكر ويقتنع ثم يقتنع بأنه اقتنع، ولكنه كائن يتلاءم. إن تلاؤم الإنسان واحتياجه إلى التلاؤم هما الهزيمة الشاملة الدائمة العالمية لذكائه ولكبريائه ولتفكيره ولحريته ولشجاعته وقوته وموهبته.

إن ضرورة التلاؤم في أخلاق البشر وفي سلوكهم وفي نياتهم وخوفهم وجوعهم وفي أفكارهم ومشاعرهم، وفي جميع مواقفهم ومواجهاتهم هي أطغى قوة في التاريخ قد أذلت وهزمت عقولهم وروضاتها وصاغتها في نماذجها البليدة الموحدة المستسلمة العدوانية الحمقاء. إنه لا شيء يستطيع أن يعتدي على حرية الإنسان وعلى ذكائه بل وعلى أخلاقه وشهامته وعلى احترامه لنفسه، بكل هذا الشمول ولديمومة مثل احتياجه إلى التلاؤم.

* * *

أجل، إنه ليرهق الإنسان ويحرجه ويؤنبه، بل ويتهمه أحياناً أو دائماً أن ينشق على ذاته بقدر ما يرهقه ويعجزه ويرهبه ويقتله أحياناً أن ينشق على

مجتمعه. إن هذا لا بد أن يدفعه، أو هو خليق بأن يدفعه، دائماً أو أحياناً إلى أن يخضع ويهزم ذاته وكل ما فيها من أشواق وتطلعات واحتجاجات واحتمالات أخرى، ليكون متوافقاً مع ما يستطيع أو خاضعاً له، أي ليكون آمناً ومستتراً ومستقراً ومحترماً أو متقبلاً، أو واجداً نفسه في الآخرين ومعهم، أو محاولاً لذلك. إن كل إنسان محتاج إلى أن يجد نفسه على نحو ما وبأسلوب ما مع الآخرين وفي الآخرين.

إن الذي لا يستطيع أن يقف الموقف الذي يتمناه ويمجده سيحاول ألا يكون تفكيره ذلك الموقف الذي يتمناه ويحترمه ولا يستطيعه. إنه حينئذ سيحاول أن يجعل تفكيره متلائماً مع الموقف الذي يستطيعه.

إن الناس يضلون ويفسدون ويهونون ويتبلدون ويعجزون بتفكيرهم حينما يقعون تحت ظروف تضطرهم إلى أن يكونوا كذلك بسلوكهم ومواقفهم. إنه لشبه المستحيل أن تكون ضال الموقف، بليده، غويه، ثم تكون مستقيم المنطق، ذكيه، تقيه.

أليس المحكوم عليهم بأن يكونوا رجعيين في حياتهم، أي بأن يحيوا كما يحيا الرجعيون، أو بالأساليب والمستويات والأخلاق التي يحيا بها الرجعيون محكوماً عليهم بأن تكون أفكارهم من الداخل رجعية، أو بأن يحاولوا ويتمنوا أن تكون أفكارهم كذلك، ولو غالباً أو أحياناً؟

إنه ليس فينا من يريد أو يتقبل بلا اضطرار أو إلزام أن يرى نفسه أو يراه الآخرون خارجاً في أهوائه، أو في مواقفه ونياته، على عقائده، أو على نظرياته، أو على مذهبه ودعاواه. لهذا فإننا إذا لم نستطع أن نعمل ونكون كما نفكر فإننا سنحاول أن نفكر ـ من داخلنا ـ كما لا بد أن نعمل ونكون، أو كما نستطيع أن نعمل ونكون. أما أن نعمل ونفكر دون أن يتدخل الآخرون، أو دون أن نحسب لهم حساباً فهذا هو أحد المستحيلات المقنعة باستحالتها. إن عيوننا ومشاعرنا وأفكارنا لا بد أن تحدق في الآخرين برهبة أو بأمل أو

بانهزام أو بنفاق كلما حاولنا أن نتحرك أو نفكر . . .

إن قدرتنا على أن نكون تتدخل دائماً في قرتنا على أن نفكر. ولكن هل تتدخل قدرتنا على أن نفكر في قدرتنا على أن نكون؟

إننا محكوم علينا بأن نحاول موافقة الآخرين فيما يرون إذا لم نستطع مخالفتهم فيما يعملون. إن الذي لا يستطيع أن يحول خلافاته الفكرية أو المذهبية أو الدينية إلى مواقف باسلة متحدية معلنة لا بد أن يجد ضرورات وضغوطاً وأسباباً كثيرة وقوية تدعوه أو تحتم عليه التخلص من تلك الخلافات، أو تفتح أمامه الباب لكي يفعل ذلك.

إنه لشيء مؤلم ومحرج ومذل مخيف لنا أن نتصور أنفسنا أو أن يتصورنا الآخرون غير أحرار، أو غير صادقين، أو غير مختارين لسلوكنا أو لآرائنا التي نرى بها أربابنا وزعماءنا وأنبياءنا ومذاهبنا وأدياننا. نحن نريد دائماً أن نبدو لأنفسنا وللآخرين في أجمل وأقوى وأشجع الصيغ الإنسانية.

إننا لهذا لا بد أن نحاول الهرب من هذا التصور لأنفسنا أو من هذا الموقف. إنه تصور أو موقف لا بد أن يجعلنا نتعذب ونعاني من الشعور بالعار والمذلة والهزيمة مما كانت ضآلة احترامنا لأنفسنا. وسكيون أسلوبنا أو أحد أساليبنا في الهرب من ذلك هو أن نحاول إكراه تفكيرنا على التوافق مع السلوك والتفكير اللذين لا نستطيع مخالفتهما.

إن سلوك الإنسان مقيد أكثر وأشمل من تقييد تفكيره. لأن السلوك مكشوف ومتصادم ومناقض أكثر. ولكن تفكيره محتاج أيضاً إلى التقيد بسلوكه. لهذا فإن التفكير خاضع للقيود لأن السلوك خاضع لها أكثر. وهل يمكن أن يخضع التفكير لأي شيء لولا خضوعه للسلوك؟ إنه سيجد الكون أكبر منه. ولكن هل يخضع له لولا خضوعه للسلوك؟

إنه إذا كان محتوماً علينا أن نعمل ونفكر مكرهين فإن من الأفضل

والأجمل بنا ولنا أن نحتال على الاقتناع بما أكرهنا عليه، لنكون مختارين أو لنبدو كذلك. إننا نقتنع بما أكرهنا على الالتزام به بلا تدبير. إن الفروق بين اقتناعات الناس المذهبية والدينية والتعليمية هي فروق كينونات لا فروق تفكير.

إن الإنسان قادر على إخضاع سلوكه. وإنه أيضاً لقادر على إخضاع تفكيره. إنه ليخضع تفكيره وليس تعبيره فقط عن تفكيره.

ومهما تحدث الإنسان عن أفكاره الحرة وعن شجاعته فليست شجاعته وحرياته إلا تعبيراً عن خضوعه. إن الخضوع أسلوب من أساليب الحرية، كما أن الحرية أسلوب من أساليب الخضوع. إن خضوع النهر في جريانه صيغة من صيغ الحرية، وإن حريته في جريانه صيغة من صيغ الخضوع.

إن الخضوع والحرية كلاهما حرية، أو كلاهما خضوع، أو كلاهما حرية وخضوع. إن الفكر المتوقد المتلفت المتطلع المحدق بشراسة ليس حراً في ألا يكون كذلك، وأن الفكر الخامد الغافر المغضي حر في أن يكون خامداً غافراً مغضياً... إن كلا الفكرين حر أو كليهما غير حر، أو كليهما حر وغير حر.

كيف يمكن أن يجمع كل هؤلاء البشر بمثل هذا الأسلوب والتتابع والاقتناع على الإيمان بأساطيرهم وتعاليمهم المختلفة، حتى لكأنهم قطع من الطين أو التراب، توضع كل أحجامها وأشكالها على مقاس واحد؟ من وهب عقولهم كل هذه القدرة على الاقتناع الموحد؟ كيف استطاعت عقولهم أن ترى وتعلم وتؤمن وتقتنع دون أن تستعمل نفسها؟

نعم، لقد وجدوا أنفسهم مقتنعين أو وجدوا عقولهم مقتنعة. ولم يناضلوا ليكونوا كذلك.

هل كان ممكناً أن يوحد الناس إيمانهم وعقائدهم ورؤيتهم لأربابهم لو

لم يكونوا محتاجين إلى أن يوحدوا صلواتهم ومعابدهم وهتافاتهم وخطواتهم الحمقاء؟ كيف كان يمكن أن نرى هذا الإله جميعاً، وأن نراه بهذه الصيغة وبهذه الصفات والأخلاق والشهوات والإرهاب، وبهذا الاحتياج إلى صلواتنا وعباداتنا، وإلى هزائمنا وضعفنا وتملقنا له، لولا حاجتنا إلى أن نقف في طابور واحد، وإلى أن نبكي بلغة واحدة، وإلى أن نكذب ونفتضح ونمارس العار والتفاهة والهوان والغباوات بأسلوب واحد وصيغة واحدة؟ لقد رأيناه هكذا لأننا مضطرون إلى أن نمارسه ونمارس أنفسنا هكذا. لقد أصابت الحماقة كل عقولنا لأنها لا بد أن تصيب كل سلوكنا. لقد توحدنا في المنطق لتوحدنا في السلوك. إنها لقضية مفهومة أو يجب أن تكون مفهومة. إنها لقضية لا بد أن تظل غير مفهومة ولا ينبغي أن تكون مفهومة مهما كانت مفهومة ووجب أن تكون مفهومة.

إن الذين يفرضون علينا سلوكاً معيناً هم حتماً يفرضون علينا تفكيراً معيناً أي مذهباً معيناً أو ديناً معيناً أو تعاليم ونظريات معينة، أي يفرضون علينا الاقتناع بذلك. أي أنهم يصنعون لنا هذا الاقتناع، وليسوا فقط يطالبوننا به، أو يريدونه لنا، أو يفرضون علينا إعلانه فقط.

إذن فالبشر ليسوا كائنات معتقدة أو مقتنعة أو مؤمنة، بل هم كائنات ملتزمة أو متتابعة، تدعو التزامها وتتابعها اعتقاداً وإيماناً واقتناعاً ومذاهب وأدياناً ونظريات.

إن المراد هنا الالتزام بالآخرين وبالوقوف في الطابور الطويل لا بالأخلاق أو بالمثل. فالمذهب والاعتقاد هما تناسخ من المجتمع وذوبان فيه، وهزيمة نتلقاها منه، وليسا أي المذهب والاعتقاد فهماً أو اقتناعاً أو بحثاً عن الأفضل أو الأصدق أو الأذكى. إن المذهب والاعتقاد أسلوب من أساليب الوقوف في الطابور الطويل، وليسا موقفاً ذهنياً أو اختراقاً ذهنياً.

ومع أن قانون الذوبان في المجتمع هازم ومذل لشجاعة الإنسان

ولحريته وذكائه وكبريائه إلا أن هذا القانون مفيد لحياته ولحاجته إلى النظام والاستقرار، وإلى الشعور بالأمن الروحي والفكري والأخلاقي. إن الاستعباد الروحي والعقلي حاجة إنسانية تجيء بأسلوب عدوان وطغيان وخداع وأكاذيب.

إن الإنسان محكوم عليه بألا يجد نظامه واستقراره إلا في خروجه على نماذجه التي يفكرها ويمجدها ويتحدث عنها ويتمناها ويزعم أنه يحياها.

إنه لمحكوم على الإنسان بأن يكون فوق جميع النماذج المعروفة والمستطاعة في طموحه وأفكاره، وفي نماذجه المذهبية والدينية والتعليمية، وتحت جميع النماذج المعروفة والممكنة في هوانه وخضوعه، وفي إيمانه وتصديقه وافتضاحه.

. إن ضرورة التوافق والتوحد مع الآخرين تحول الإنسان إلى نموذج بلا شبيه في فقده للشجاعة والذكاء والحرية والاحترام للنفس. إنها تحوله إلى كائن لا مثيل له في العدوان عليه. ولعله لا يوجد كائن غير الإنسان أو مثل الإنسان يسعد ويستريح ويستقر ويتهذب ويتدين بالعدوان عليه.

إنك لن تجد أو ترى أو تتصور صيغة للتعبير عن الفقد لجميع مستويات وأساليب الشجاعة والحرية والكرامة والذكاء والرفض مثل أن تجد ملايين البشر يصلون لإله واحد، في معبد واحد، وبنشيد وأسلوب واحد، وبجبهة واحدة، وبقامة واحدة، وباقتناع واحد، وبرؤية واحدة، وبمستوى واحد من الخوف والاستسلام والأمل والانتظار. وإنك لواجد دائماً هذه الملايين من البشر يصلون هذه الصلاة بكل صفاتها وأساليبها وظروفها لمثل هذا الإله.

أو مثل أن تجد كل هذه الملايين من الصيغ البشرية تؤمن بمزايا أو ببطولة أو بعبقرية زعيم واحد، هاتفة مطيعة مصلية له، فاقدة كل ذكائها ومنطقها وحرياتها ورؤاها ووقارها، متوحدة في اقتناعها به، وفي إصابتها

كلها بنوع الجنون والغباء، وبكل الجنون والغباء اللذين يصاب هو بهما، متدافعة ومتداعية ومتناصحة، ومقنعاً بعضها بعضاً بمزايا وشرف وبطولة إحدى حماقات الموت والخراب الكبرى التي يسوقها إليها زعيمها الواحد أو إلهها الواحد. وإنك لواجد دائماً ذلك بكل بشاعاته وذنوبه ومهاناته. إنه لا يوجد كائن غير الإنسان أو مثل الإنسان تتحول جميع جبهاته وقاماته إلى جبهة واحدة وقامة واحدة.

إن الإنسان حتى في أعلى وأعظم مستوياته ليس إلا حشرة موهوبة ومعدة للموت في أحد المعابد، مؤمنة مصلية لأحد الآلهة، أو للموت في إحدى الحماقات أو الحروب الكبرى، مصدقة مطيعة هاتفة لأحد الزعماء، أو لأحد المذاهب أو لأحد الشعارات، مقتنعة ببطولة موتها وبذكائه وبشرفه وبخلوده وبعالميته وبنموذجيته المذهبية أو الدينية أو الأخلاقية أو الوطنية أو الإنسانية. إن الموت في إحدى الحماقات الكبرى بطولة وشرف وخلود وذكاء. لقد عد ذلك كذلك واقتنع به كذلك لأنه وقوف في الطابور الطويل الذليل.

ولكن كلا. إن الإنسان ليس حشرة فقط. إنه ليس حشرة لها كبرياء الحشرات، ولها رفضها ووقارها وعصيانها الفكري والروحي والنفسي. إن الحشرات لا تطيع الأكاذيب والغباوات طاعة فكرية أو روحية أو نفسية. إنها إذن لأنبل عصياناً.

إن الإنسان حشرة أكثر افتاحاً وهواناً واستسلاماً وطاعة وتصديقاً. إنه حشرة تؤمن وتصلي وتهتف وتحول هوانها واستسلامها وافتضاحها إلى مذاهب وأديان وتعاليم. إنه ليس حشرة تخاف وتجوع وتهون وتفتضح وتتلوث بصمت أو بوقاء أو بغضب أو بلا دعاوى وتفاسير وتسويغات عقلية ودينية وأخلاقية. إنه حشرة تعلن عن معانيها ومستوياتها وضعفها بالإيمان والهتاف وبالصلوات في المعابد، وفي مواكب ومغامرات الطغاة والقتلة والمجانين.

إنه حشرة مؤمنة مصلية هاتفة. إنه إذن أكثر من حشرة. إن الحشرة لا تحول أخلاقها إلى إيمان وصلوات وهتافات موحدة ومقاتل عليها وباسمها.

إنه ليست للحشرات جباه تسجد عليها وبها، ولا حناجر تحولها إلى هتاف وتسابيح وأناشيد للطغاة وللآلهة وللمهرجين وللأكاذيب من كل جنس. وليست لها أي للحشرات تفاسير تفسر وتسوغ بها الجنون والغباء وجميع الحماقات والسخافات، ولا منطق لتحوله إلى إيمان وإقتناع وتعصب وبغضاء. إن الحشرة حشرة فقط، إنها حشرة لحساب ذاتها فقط. أما الإنسان فأكثر من ذلك جداً.

إن الحشرة ليست لها آلهة ولا معلمون ولا طغاة ولا وعاظ ولا خطباء يحولون عاهاتهم وآثامهم وهمومهم وجميع صغائرهم إلى عقائد وتعاليم لها.

ما أضخم وأفدح الحسابات المدفوعة أثماناً للآلهة وللمعلمين وللزعماء وللطغاة وللعقائد وللتعاليم وللإيمان. ما أكبر وأكثر الأشياء والتفاسير المدفوعة ثمناً وحسابات وطعاماً لهؤلاء.

إن الحشرات إذن ليست لها كل دمامات الإنسان وهزائمه وفضائحه. إن الحشرات تهون وتهزم وتتلوث بأعضائها ولكنها لا تفعل ذلك بتفكيرها أو بروحها أو بمشاعرها أو بتعاليمها وشعاراتها، كما يفعل الإنسان. إن الحشرة لا تفرض أخلاقها تحت اسم أية فكرة على مجتمعها كما يصنع النبي والزعيم والإنسان.

* * *

من الذكاء والقوة أن تكون متواضعاً إذا تكلمت، عظيماً كبيراً إذا فعلت وفكرت. أن تكون متواضعاً في حديثك لأنك كبير في أفكارك وأفعالك.

إنك إذا تكبرت حين تتكلم وأنت قوي وذكي هجوت قوتك وذكاءك، وإذا تكبرت حين تتكلم وأنت ضعيف وغبي حرضت على الاستهزاء بضعفك

وبغبائك، وعلى التحديق فيهما وعلى رؤيتهما بقسوة.

لماذا تتكبر متحدثاً؟ هل لأنك تريد أن تنتصر أو تخدع أو تزداد طولاً أو جمالاً أو رهبة أو محبة في القلوب والعيون، أم لأنك تريد أن ترتد طفلاً؟ هل تكبرك في حديثك إعلان عن عظمتك ومجدك، أم تثبيت لهما، أم بحث عنهما، أم مغازلة لهما، أم تحريض على السخرية بك؟ هل تكبرك متحدثاً يهب وجهك جمالاً أو عقلك ذكاء أو قامتك طولاً أو جيشك انتصاراً؟ هل تكبرك بالحديث يتحول إلى مجد لأربابك أو لآبائك أو لتاريخك أو لمذهبك أو لدينك؟

هل ذلك تدبير منطقي أم هو عرض للذات بأسلوب أو بلغة همجية؟ هل المتكبر بحديثه يقصد أن يثني على نفسه أم أن يحقرها؟ هل هو منتهى الغباء أو منتهى المعاداة لنفسه؟.

إن المتكبر متحدثاً ليس إلا إنساناً يحقر نفسه بقصد تعظيمها وتمجيدها واسترضائها. إنه إنسان يلعن الآخرين ويصنع اشمئزازهم واحتقارهم بقصد إقناعهم بمزاياه وبقصد اجتلاب رضاهم وإعجابهم به وعنه. إنه كائن تحت جميع مقاييس الذكاء ومقاييس الباحثين عن المجد وعن الحب لأنفسهم. . .

إن المتكبر بلغته إنسان يعلن عن نفسه على مستوى الذباب، وبلغة الذباب، وبذكاء الذباب. إن الذباب يعلن عن مزاياه وعن مجده وقوته وعن أغانيه بإثارة مشاعر الاشمئزاز والتحقير والغضب. إنه لا ينافس الذباب في ذلك إلا الآلهة والزعماء المتحدثن عن أمجادهم ومزاياهم بأساليب تهزم جميع الأساليب الذبابية.

إن الزعيم المحول لأمجاده وانتصاراته الصادقة أو الكاذبة إلى أناشيد وإلى دعايات ضاجة ليس أقل وقاحة أو بذاءة أو إثارة للغثيان والاشمئزاز والغضب من الذباب المحول لأمجاده وانتصاراته ولمعاركه ضد الإنسان وضد الحياة والنظافة إلى طنين وإلى سقوط على وجوه الناس وعلى طعامهم

وأفكارهم وأخلاقهم وكبريائهم.

إن مثل هذ الزعيم ليس أفضل أخلاقاً، ولا أكثر ذكاء أو تمجيداً لنفسه من مثل هذا الذباب الساقط بأغانيه وبذاءاته على وجوه الناس، وعلى طعامهم، وعلى أخلاقهم وكبريائهم، وفوق عقولهم ومذاهبهم وأديانهم، وتحدياً لإيمانهم بنظافة الحياة أو بذكائها أو بشرفها أو بشموخها أو بمنطقها، أو بأن فوقها كائناً صديقاً أو نبيلاً أو نظيفاً أو ذكياً أو أبياً أو غيوراً. وهل يوجد مثل الزعماء سقوطاً ببذاءاتهم ووقاحاتهم على وجوه الناس وعلى أخلاقهم وذكائهم وشرفهم بل وعلى طعامهم؟

إن التحدث عن النفس بإعجاب وإنشاد فن لا يجرؤ عليه أو يرضاه أو يستمع إليه أو يطالب به إلا الإله أو الزعيم أو الذباب أو من كان في مستوى الإله أو الزعيم أو الذباب. وهل يوجد من هو في مستوى الآلهة أو الزعماء أو الذباب؟

لهذا لقد ظل الذباب والآلهة والزعماء في كل التاريخ أكثر الأشياء تحريضاً على الغثيان والاشمئزاز والغضب، وأكثرها هجاء لمجد الإنسان والحياة. لقد ظل الذباب والآلهة والزعماء أقسى وأشمل هجاء وسباب لكل ما يحتمل أن يكون في الحياة أو في الإنسان من جمال أو ذكاء أو نظافة أو كبرياء أو عبقرية أو موهبة.

فهـرس المحتويات